

كهوف هايدراهوداهوس

سليم بركات

محاورة خارتيماس وسوسينو

«هل عثرت على النصف الآخر من حلمي، أيها الهوداهوس سوسينو؟»، قال خارتيماس الأشقر العُرف، وأصدَرَ صهيلاً خافتاً من حنجرته - حنجرة الكائن المُحتلِّس الشكل من نصف إنسان ونصف حصان.

تنهَّد سوسينو. حرَّك في الهواءِ دوائرَ القلق الخصب كبدور اليقطين حول برك المياه: «لي ستة أيام أغمضُ عينيَّ من الليل حتى الظهيرة، فلا يتجلَّى لخيالِ أعماقي صورٌ مرئيةٌ أو إشاراتٌ ناطقة، يا خارتيماس. اختلطَ عليَّ وقتُ الطعام بين الغداء والعشاء. أتري خاصرتي؟ جلدي لم يعد ملتصعاً. إنَّه هُزالُ الحيرة»، وألقى نظرة، من مشارف باب الكهف الكبير، على العراء.

«ما الذي يجري في أرض «هايدراهوداهوس» يا سوسينو؟ خمائرُ العافية عدتْ حامضةً. غدا خبزٌ يقيننا حامضاً»، قال خارتيماس، وهزَّ ذيلُهُ يطرد ذباباً من ذبابات السرخس الصغيرة. «لم يعد مُحتملاً ما يفعله الأمير ثيوني». مَنْ تظنُّه أوحى إليه شرارة الجحيم هذه؟ ليس في عِلْمِ تراب هايدراهوداهوس، ولا في عِلْمِ هوائها - هواء الكهوف الكبرى، سابقه يتسلَّى فيها ملكٌ أو أمير باستنطاق الناس عن أحلامهم، أيها الهوداهوس خارتيماس. البقاء يتقوَّضُ هنا»، قال سوسينو. حَصَرَ الأفقَ المخيَّطَ بإبرة السهول في بصره. مسَّت اللوعة عينيه بأنفاسها

المالحة فدمعتا: «سأرحل بعائلتني عن هذه الأرض. سأفني في قلبي حين المكان».

صَمَتَ الوجود الناطق. انحدر المخلوقان ذوا نصفي الإنسان ونصفي الحصان من المرتفع، الذي يكلُّه هيكل الكهف، إلى السهل. اختلط طيفاهما بأطياف الزُّراع المجتهدين في منطق الزُّرع، وموانسة الحُضار النبيلة في حقولهم.

ثيوني - هايدراهُوداهُوس

في صباحٍ لطيف الحنجرة، ذي غناءٍ خافت تتشربُّه الأعمدة الجليلة في كهوف هايدراهُوداهُوس - أرض الصُّنَّاع السُّحرة للخناجر، والحدوات، خرج الأمير ثيوني من مخدعه الحجري مبتسماً إلى بهو كهفه. كان الخوان الصخر، المستطيل ستاً وستين ذراعاً، على أتمِّ عُدَّتِه: فاكهة الظلِّ وفاكهة الشمس متجاوزة في الصُّحاف. ورقُّ الدُّبوث، وأسواقُ الهليون الفتية مقشرة، وبعضُ أزهار القرع المنقوعة في خلِّ الدراق الفجِّ، وهي ما يستمرُّها ثيوني على الريق.

نهض خالصاً الأمير الجالسون. تهيأ الخدم وهم يطلقون صهيلاً محسوباً بقياس الدُّرية من جناجرهم، خافتة لكنها صارمة الثَّبر في علوم الخدم أنصاف الإنسان وأنصاف الخيل. جلس ثيوني وصدرة إلى الخوان. جلس الخُصاءُ ممدِّدين قوائمهم، كلُّ بحسب ما يريخُه. هزُّوا أعرافهم المتدلِّية فوق الجباه، قبل أن يقرب الخدم الصحون إلى تناول أيديهم، وقد انحنوا بقوائمهم الأمامية على الأرض الرخام، في الفسحات المتساوية بين جليس وآخر. تحدَّث الأمير: «رأيتُ نصفَ حلمٍ بهيجاً في ليلتي. سأنتظر قدوم الأميرة أنيكساميدا لتتئمَّه لي. عندها النصفُ الآخر».

لكل مخلوق في هايدراهُوداهُوس من يشاطره، من الأقربين إليه، نصف حلمه. لا أحد يحلم حلماً كاملاً. لكن لا أحد يروي لغير شريكه في مناصفة الحلم ما يراه من تجلِّي منامه عليه بالصور مندرجة في خصائص اللون، أو بلا لون: منذ السنة السادسة من أعمار المخلوقات هذه، ذوات أنصاف جذوع الإنسان الملتصقة بهياكل الخيول، يختار القرين قرينه، بالتوافق النبيل لشروق الطُّباع على أعماقهما. ولم يحدث، قط، أن جرى إخلالٌ بذلك التوافق، الشبيه بالمشاق، بين اثنين. إنه اختيار الإقامة النهائية في الحيِّر الذي يؤثُّه، برهافة المصادفة المدلِّلة، كلُّ من الظلِّ والشكل.

هم، المخلوقات التي تتنادى بلقب الهوداهوس قبل لفظ الأسماء الخاصة بمن يُنادون، يعرفون بالفطرة أن كل اثنين يتناصفان حلماً واحداً. ولم يخرج أحد عن العُرف في كتمان حلمه لنفسه ولقرينه. لكنهم يتبادلون الإشارات، تلميحاً، للتدليل على أحوال الأحلام التي تشاطروها: «هذان مرّاً بحقول ذهب. ذان صعدا مدارج الغمام بحدواتٍ من معدنٍ ليس من معادن الحدوات. ذانك خابا في إتمام شهوة».

إنه تخمينٌ لأحوال الأحلام بالفراصة التي فيهم، أو بالقياس النفساني إلى أحوالهم بعد أحلامٍ أغوت خيال نومهم: الخبيبة، اللذة، الكابوس، الرضا، التُّزاع والاضطراب، الانحصار،

العلاماتُ القلقة؛ كلُّ ذلك يترك في العيون، بعد اليقظة، أثراً من خطواته الخفية. بيدُ أنَّ التخمين يبقى تخميناً. أما الحلم المتناصفُ فهو - بحقيقة صورهِ، وأطرافِ عناصرهِ الضَّالةِ والمُسترشدةِ، المتكافئةِ وغير المتكافئةِ - رهينُ علمِ المتشاركينَ فيه إلى الأبدِ.

ثيوني، أمير هايدراهوداهوس ذات الكهوف المُجتَّاحةِ بالأعمدةِ المهيبَةِ، حرقَ الموروثَ. فاجأً جلساءَهُ الخُلصاءَ - غضاريفَ الحقولِ المديدةِ، وأمناءَ خزائنِ المُونِ والأسلحةِ - بالطلبِ إلى زوجتهِ أنيكساميدا أن تسردَ نصفَ حلمها على أسماعهم. صَهَلُ الحاضرونِ. اهتزَّ عرفُ الأنثى تحتَ خمارها النازلِ حتى ظهرها. اهتزَّ ثديها المحتجبانِ تحتَ شبكةِ الذهبِ المتدلِّيةِ من عنقها على صدرها. التمع جسدُها الأبلقُ ذو الوبرِ الحريريِّ كأهدابِ طائرِ النِّعامِ: «أيها الهوداهوس الأميرُ، يا زوجي الناطقِ بلسانِ الكهوفِ ذي الشَّعبِ الثلاثِ، هل هي رؤيا أمَلتُ عليك كَشَفَ المستورِ من خصائصنا - نحن مخلوقاتِ الشكلِ الأنبِلِ؟».

«ما من رؤيا أمَلتُ عليَّ هذا الطلبُ، أيتها الهوداهوس الأميرةُ، يا زوجتي الناطقةِ من بصرها - بصرِ الكهوفِ الأكثرِ كمالاً. لقد أمَلتُ رؤيايَ عليَّ وأمَلتُ، ما أريدُ، على رؤيايَ. لا حلمِ يبقى مُلكُ اثنينِ، وحدهما، في هذا المجلسِ، بعد اليومِ»، قال ثيوني ذو العباءةِ القصيرةِ، المنحدرةِ بمحملها الأصفرِ من كتفيه على ظهره - ظهرِ الجوادِ والآدميِّ المتصلبينِ.

عَرَقَتْ يدا أنيكساميدا. لطالما سَرَدَتْ على زوجها النصفَ الذي تحلمه، ولطالما سردَ عليها زوجها النصفَ الذي يحلمه. هذا إن حلما، مثلهما مثل مخلوقاتِ هايدراهوداهوس، وإن لم يحلما تواعدا أن يعتصرا، ما يقدران على اعتصاره، بيدَ النومِ، من عناقيد الليلِ الناضجةِ، أبداً، في الفصولِ كلها. تعتَرَّ خيالُها بصوتها قليلاً، وتعتَرَّ صوتُها بحطامِ السرِّ الذي تناثرَ في المجلسِ: «رأيتُك جريحاً بلا ألمٍ. كنتَ تروي فكاهاً لكاهنِ الطواحينِ، الهوداهوس كيدرومي وهو يأكلُ قِثَاءً. لقد ناديتُهُ، مرتينِ - بعد ذلك - باسمِ أورسِينِ»، قالتِ الأميرةُ. حَمَحَمَتِ حَمَحَمَةً خافتةً وهزَّتْ ذيلها الأسودَ، الملتَمِعَ الشَّعرِ من زيتِ زهرةِ عبَّادِ الشمسِ.

«غريب هذا»، قال الأميرُ وهو يمضغُ زهرةً قرعٍ مخلَّلةً. «النصفُ الذي عندي بهيِّجٌ. كان كاهنِ الطواحينِ معي. نعم. لكنه يعدُّ على أصابعِ يديه الإماراتِ التي يريدُ أمراؤها الدخولَ، طوعاً، في شرعِ هايدراهوداهوس - شرعِ التسليمِ بتحنيطِ الموتى بدلَ حرقهم. الحرقُ يُكثِرُ اقتحامَ الأرواحِ للأمكنةِ المحظورةِ: العقلِ. الهيكلِ الذي يتزوَّدُ فيه الأمراءُ برؤيا الكهوفِ المفقودةِ. مخادعِ النساءِ». ابتسم: «لا نريدُ شركاءَ في خلواتنا». واستدارَ إلى زوجته: «نصفُ حلمي بهيِّجٌ. لا. ربما ليس بهيِّجاً على نحو ما أريدُ. كنتُ أتمنى أن يسترسلَ أمراءُ التخومِ الحجريةِ في عنادهم»، وحَمَحَمَ بقوةِ، فتلمسَ الجالسونَ أطرافَ الخوانِ. «منذُ بلغتُ سلالتنا الدُّرَّةَ في شؤونِ تدبيرِ الحروبِ لم نعدْ نجدُ مَحْرَجاً من ذلك. الحروبُ تمرينٌ عقليٌّ لاستدراجِ النَّفسِ إلى صلحٍ مع القلقِ. بين كلِّ حربٍ وأخرى فسحةٌ لا تُعوِّضُ - لأنها فسحةٌ بين حربٍ وأخرى - من أجلِ ترتيبِ العقلِ نَفْسِهِ ترتيباً أشبهَ بأعمدةِ هايدراهوداهوس: إنها لا تسندُ سقوفَ كهوفنا فحسب، بل تسندُ الدُّرَّةَ المفقودةَ للنِّظامِ السماويِّ الثابتِ. بين حربٍ وأخرى تلزمنَا فسحةً للتفكيرِ في حربِ

جديدة، أكثر كمالاً. وهؤلاء الأمراء يعودون بي إلى الضجر، أيها اليهوداهوس الخالصاء». حَمَحَمَ في خفوتٍ حَمَحَمَ المجلساء - أهلُ البأس. «أين أنستوميس؟»، سأل الأميرُ بالتفاتٍ من رأسه على جهات الخوان. «ماذا قلت أيتها الأميرة؟. كنتُ أنادي كاهن الطواحين باسم أورسين. أين أنستوميس لتتدبر لي معنى هذا الاسم؟».

لوح أنستوميس

ككل مخلوقات اليهوداهوس، كانت أنستوميس تحمل خنجرين، بدورها، يتدليان من حزامين تحت إبطيها. سَلَّت الخنجرَ الأيمن بيدها اليسرى من الغمد الذهبي، ونقرت بصله الرهيف على حجرٍ في جدار الكهف مليءً بالرسوم: «هذا النحت يحوِّجُه ترميم أيها اليهوداهوس سيئو»، قالت لحامل المفاتيح، تابعها، في إدارة «فيثلافيندي» - مكتبة أرض هايدراهوداهوس. العلوم المتوارثة، بتمام الخصائص المُستَسَخَّعة عن شرائع الليل وشرائع النهار، كانت في عهدة أنستوميس، مدوّنة منحوتاتٍ نافرة، أو غائرة، على ألواحٍ يمكن نُقلها، وعلى جدران الكهف ذي الجوف المتعرِّج، المحمول السقف على ثمانمائة عمودٍ أخضر، كلُّ عمود يتوسط فسحةً قوسيةً ذات طنافس للجلوس، ومقاعد متدرّجة العلوّ تواجه الجدران ليتأملها الزائرون. تصاويرُ أشكال بلا نهاية غطّت الحجرَ حتى السقوف: مخلوقاتٌ يابسة، ومخلوقاتٌ مياه. مخلوقاتٌ هوداهوس، بعضها كصور أهل المكان الأبعد والأقرب، وبعضها من فرائد الخيال - مجنَّح، أو ذو رؤوس طيور، وماعز، وجواميس، وأفاع. الكتّبة يدوّنون الصورَ الحروفَ على أوراق النبات، ويتولى النحاتون نُقلها إلى الحجر، بإشراف أنستوميس ذات القرن الفريد النبات في جبهتها؛ أنستوميس الناجية الوحيدة من فصيل من الهوادهوس ولدوا بقرون على جباههم. لم يتكاثروا أبعد من خمسة أجيال، ثم تسلّمْتهم «حمى القرائن»: أن يجدوا لكل شيء رديفاً: الكلمات. الحركات. العناصر الأربعة. الأفلاك. الأسماء. المخلوقات. أقرُّوا أنّ أي وجود، لحيٍّ أو جماد، لا يكتمل إلا بوجودٍ آخر يجعله مُضَاعَفاً. منطقٌ مَّا أقرب، في التشبيه، إلى منطق «الشيء ومعناه»، لكنه لم يكن على ذلك النحو الصارم. كان يذهب أبعد في تدبير العلاقات بين «الشيء ومعناه»، كالعين والقلك، مثلاً؛ أو النوم وطيّر الطاووس؛ أو الحرب والرحم. ولما علقت بعض مسائل القرائن بشباك خيالهم، فما استطاعوا استخلاصها - مثل الندم، والضرورة، وقياس القياس، والحقيقة، واللون - استفحل في أجسادهم مهقٌ ينتشر تدريجاً، كلما غطى عضواً جفَّ ذلك العضو. سموا المهق الغريب باسم «حمى القرائن». بقي اسم العلة مدوّناً في كهوف صيادلة هايدراهوداهوس، فيما جفّت أجسادُ الفصيل ذي القرون، فنقلوا، محتطين من فعل الداء، إلى أخدود تاييس، لتستقرَّ هياكلهم هناك، وقوفاً، إلى جوار هياكل اليهوداهوس المحتطة بفعل الريح الجافة.

كانت أنستوميس في عامها الثاني حين عرفت أنها نجت من ملاك الحمى البيضاء. لم يعلّق طحين الجفاف، الذي هبَّ من مضيق القلق، بجلدها الفضي. مصادفةً قادتها إلى أطراف الهاوية، وراء محيط الكهوف، حيث الركام الحجري المتكوم من أنقاض أعمدة، وألواح، هي

نفاية الترميم، الذي يقوم عليه صنّاعُ الزخرفِ وصنّاعُ العمارةِ بين أعمدة الكهوف وجدرانها، في هايدراهوداهوس. عثرت المخلوقة الفريدة، ذات القرن الأصفر في جبهتها، على بقية من لوح مهشم، يحمل صورَ مخلوقاتٍ - سطورٍ من كتابةٍ غامضة. عادت بالهشيم إلى أبيها المتيبس نصفه - نصفُ الجواد. تأمل الأب الحروفَ الصورَ بخاصيةٍ فصيله، الذي ما من مخلوق في عرقه نسي، قط، شيئاً سمع به، أو رآه، أو قرأه في صحائف الحجر. كلُّ كائنٍ منهم ذاكرةٌ لا يَبلى تفصيلُ في خزانها، لذلك عَهَدَ «مَجْلِسُ الصُّورِ» و«هيئةُ مجازات الأشكال» إليهم أمانة «فيفلافيدي» - مكتبة أرض هايدراهوداهوس، جيلاً بعد آخر، حتى وصول الخلافة إلى أنستوميس «الهادئة كظل في زاوية»، كما سمّوها.

سهل الأب سهيلاً خافتاً. وضع يديه على مقبضي خنجره كعادة اليهوداهوس في التأمل: «ما هذه الأشكال، يا ابنتي الهادئة؟».

جف الأب مسترسلاً في سؤاله عن تلك الأشكال. حُمِلَ هيكله إلى أخدود تاييس - أخدود ريح الجفاف القادمة من خليج الرمال. بقيت الابنة وحدها في حيرتها. ثم صارت حيرتها - قبل انتقالها إلى إدارة «فيفلافيدي» بشهر واحد - حيلةً من حيل المنطق. فالصور المنحوتة على بقايا اللوح الهشيم كانت تكراراً لشكل يجعل من معنى القرنين سيرورةً عبثاً. هكذا خَمَّتْ أنستوميس. الأشكال، التي كانت تشبه بأنصافها الأمامية العلوية، من الرؤوس حتى البطون، أشكال اليهوداهوس الأمامية، كانت تتصل - على نحوٍ مستقيم - بأفخاذ، وسيقان، وأقدام، لا غير. ما من اندماج فيها بأعضاء جياذ. عراه عليهم عباءات قصيرة تصل حتى أردافهم، وعلى رؤوسهم تيجان رقيقة الأطواق. كانوا متشابهين بلا تمايز. كانوا استنساخاً لتجل من صورةٍ واحدة على خيال نخاتها. وذلك، تحديداً، ما انتشل أنستوميس من الغرق، كمخلوقات فصيلها الفريد، في الهاوية البيضاء لـ «حُمى القرائن». لقد انفكّت عقدة تدبير العلاقة بين الشيء ومعناه: «التكرارُ خاصيةٌ عزَلٌ للوسائط المفترضة أن ندوِّخ عظامنا في استدراجها إلى ربط وجود ما بوجود آخر يؤسّسه، ويضاعفه ليصير مُحْتَمَلاً. هذه الأشكال لا تروي حكاية؛ لا تروي مأثرة؛ لا تأمل أن يستخلص النظرُ إليها ما يوحي أنها كانت صوغاً كاملاً أو ناقصاً لحروف»، قالت أنستوميس بلسان المنطق فيها لعقل القلق فيها. تحدثت طويلاً - بصوت عالٍ يشوبه انفلات الصهيل من مخارج الحروف - إلى نفسها، في عبورها حقول الدرة، كلما عثرت على نُتْفٍ من بقية اللوح الغامض. «سأسميه الواقف على ساقين ككراكي السهل المُعشب. الواقف على ساقين. الواقف أبداً. أيستطيع أن يطوي أعضائه؟ من تخيل هذا الشكل المُعذَّب؟ إنه بلا قرين». صهكت في لوعة: «ما الذي فعلته أمّتي - أمّه القرنُ النابت في الجبهة - بنفسها؟ انحدر المولودُ الأول منا من رحم أنثى هوداهوس عادية تصنع أقفاص الطواويس من قصب نهر تومان الأزرق. تزوج المولودُ الذكر، بعد ثلاث سنين، أنثى هوداهوس عادية تجدل أذيال إناث اليهوداهوس وتزيئها بسلاسل من ودع نهر تومان. جاء المولود الثاني من فصيلنا أنثى بقرن تزوجت ذكراً من اليهوداهوس يصنع حدوات للخياطين، ومزيتي أعمدة الكهوف ذوي العيون القرمزية. أنجبت

الأنثى أنثى بقرن في جبهتها. انحسرتُ جاذبية الغرابة من أعماق الهوداهوس وهم يرون تكرار رؤوسٍ نبتت على جباهها قرون كقرون الجداء. انفكُّوا عن التزاوج بهم، فتزاوج وحيدو القرون بعضهم من بعض، يورثُ المخلوقُ منهم سُئلُهُ خنجره وذاكرته. ذاكرة الحفظ بلا نهاية». تلمَّستُ أنستوميس مقبضي خنجرها، وصَهَلتُ سهيلاً خافتاً. «ما الذي فعلتهُ أمتي الصغيرة بنفسها؟ ما الذي استدرجها إلى فحِّ البحث عن إيجاد قرينٍ لكل شيء؟. ألم يعبر خيالَ واحدٍ منها صورهُ شكلٌ يشبه شكلَ هذا الكائن الواقف على ساقين في مزق اللوح الغريب؟ مُدُّ رأيتُ نحتَ هذا الكائن عرفتُ أنني نجوتُ من الحمى. آه، أبي، أيها المنتصبُ يابساً في مجرى الريح بأخدود تاييس، لماذا عاد بصركُ بلا صيدٍ من هذا اللوح؟».

مسحتُ أنستوميس بطرف عباؤها الزرقاء القصيرة عينيها من برق الدمعة المتلصَّصة منهما على الوجود، حين عاد خيالُها بها إلى الممرات بين حقول الذرة، تعبرها عائدةً بمزق اللوح إلى خزانة البيت الحجرية. ولما استقرت «فيفلافيدي» في عُهدتها، استقرت بقايا اللوح، أيضاً في خزانة من خزائن الكهف منحوتة في عمود بلا نقوش، بين الأعمدة الثمانمائة الخضراء، لا يفتح سينو بابها الدائري لسواها؛ يفتحه في نضوج القمر على نار دورته الكاملة. دورة الثور النَّحات، أي في الموعد الغامض، الذي يختلط نظامُ جسد أنستوميس، كأنثى، بنظام الدورة الفلكية، فتصيرُ متوجَّسةً، قلقاً، ممتلئةً برغبة في البكاء بلا سبب.

نقرتُ أنستوميس بنصل خنجرها على حجر في الكهف: «أيها الهوداهوس سينو، هذه النقوش تتآكل. أريدُ من يرممها. نحنُ قُرءُ الصور لا نثق إلا بعيوننا»، قالت، وعادت فمسحت طرفَ عينها اليسرى بظاهر يدها المسككة بالخنجر.

سهل سينو سهيلاً خافتاً: «أرى رسولاً في باب الكهف يومئذ إلي». مشى إلى باب الكهف في ثُوْدَةٍ، على حوافره الأربعة، المبطَّنة بأربع حدوات من معدن النحاس. غاب قليلاً، ثم عاد مسرعاً: «يطلبك الهوداهوس الأميرُ أيتها الهوداهوس أنستوميس، مروضةً نظام الصور في فيفلافيدي».

سهلتُ أنستوميس سهيلاً الملبِّي المتدرِّج في حفوت نبرته. أعادتُ خنجرها إلى الغمد الأيسر، وهي لما تزل تشير بإصبعها إلى النقوش كي لا ينسى سينو أمر الترميم.

أورسينُ

«ما الموت؟»، أيتها الهوداهوس أنستوميس»، قال الأمير ثيوني فور دخول حاكمة «فيفلافيدي»، ذات الحدوات الفضة السميكة، إلى المجلس الدائري، المؤثث بوسائد مستطيلة كبيرة من حول نافورة الماء، حيث انتقل الأمير والأعيان بعد إفطارهم. «أنت تحفلها، يا زوجي الهوداهوس الأمير. سؤال كهذا يتعيَّن نقشُهُ، بهدوء»، قالت الأميرة أنيكساميدا بتوبيخٍ خفيفٍ. حَمَّمتُ. «الموتُ صاحبٌ، يا زوجتي الهوداهوس أنيكساميدا، فلماذا لا يكون سؤالي صاحباً؟»،

وتطلّع إلى أنستوميس. ابتسم: «تُشغلكِ الصورُ النبيلةُ يا حاكمة فيفلافيدي، وأنا يشغلني ما يُشغلُ الصورَ».

تدحرج صوتُ عابثٍ في أرجاء المجلس الدائري. وقف المهرجُ خائِباسٌ على قائمتيه الخلفيتين، فجَلَجَلَ الجرسُ المتدلي من عنقه على صدره الأبيض في رقعة جلده البني: «أنا أعرف الموت.» «أجفلتُنا»، قال الأميرُ ساخطاً. «أما من أحد، في هايدراوداهوس، يخنق هذا المعتوة بيديه؟ أما من أحد يذبُّه بحدوته لا بخنجره؟».

«بلى»، قال المهرج. وسلَّ خنجريه اللذين ينتهيان بنصلين مكسورين: «أنا سأقتل نفسي عشر مرات، من الآن وحتى تعود الابتسامة إليك»، ثم ركع على ركبتي قائمتيه الأماميتين، وفتح ذراعيه على وسعهما: «أنا ميت، أيها الهوداهوس الأمير. أتحاسبُ ميتاً؟ جفَّ جسدي، في وقت غابرٍ لم أعد أتذكره. جفَّ كثرمة. انفلقتِ الثمرة الجافة فسقطت منها بزرُّ الحياة في غمامة صغيرة تائهة. نبتت البزرُّ من رطوبة الغمامة. ولدتُ تائهاً. أنا لستُ أنا. أنا ثغرة في الوجود تركها الذي كنت ستحاسبه، أيها الهوداهوس الأمير. أتحاسب من هو ليس هو؟». سنَّ الخنجريْن أحدهما بالآخر كجزارٍ: «الآن سأقول لك ما هو الموتُ، لأنني أعرفه».

«بحقِّ اللون - الإله سأشويك، ذات يوم، يا خانياس، على نار هادئة من شَعْر أذيال الهوداهوس، بدءاً بذيل كاهن الطواحين كِيدْرُومي. ستكون طعامَ نبلاتي، وخاصتي، هؤلاء، لقمة لقمة»، قال الأمير، فصدر صهيلٌ من أفواه الجالسين استنكاراً مستفظعين: «ستقتلنا، أيها الهوداهوس الأمير»، متموا بلسان واحد.

«ألم تشبعوا من أكل الطير؟ لا نأكل من اللحم إلا الطير. من ألهم سلاله الهوداهوس هذا الإختزال؟»، قال الأميرُ مُحَمَّماً.

«الشكل»، قال كاهن الطواحين. أردف: «لا نأكل ما يقف على أكثر من ساقين. لا نأكل أشباهنا».

«طعامك الفراشات، أيها الهوداهوس الكاهن. أعرف ذلك. كم جيلاً تريد أن تعاشر؟ أما تضجر؟». واحتدم قليلاً. مدَّ عنقه ليرى الصف الثاني من الجالسين، أبعد من الحلقة حول النافورة: «أوقفي إرضاع ابنتك، أيتها الهوداهوس سألوتيا، زوجة أخي أكسيانوس. كلما جلست هناك أرضعت ابنتك. ونحن مضجرون إلى هذا الحد؟»، قال، فأعادت الأنثى الجالسة قرب عمود ثديها إلى مكمنه تحت أطواق الخرز الكثيفة، النازلة من عنقها حتى أسفل ثديها. حَمَحَمَتْ حَمَحَمَةً خافتة فيها اعتذاراً ما.

«ما المووت؟»، عاد الأمير يسائل أنستوميس الواقفة خلف حلقة الجلساء.

«لأعرف، أيها الهوداهوس الأمير. لكنني أحنن، بخيال التقصان، أنه خراب اللون».

قالت أنستوميس، ذات الشعر الأسود الطويل المجدول عشرين جديدة.

«أمثك عرف الموت أسرع، كأن الموت وُلد معها»، قال الأمير، فضحك خانياس المهرج:

«إذا لم نولد لا يولد الموت، يا أميري».

بركات: كهوف هايدزاهود/هوس
«الموت، الذي ولد معك، يا خانياس، سيمزق نفسه لوعة مما سأفعل بك»، قال الأمير. مسّ مقبضَي خنجره الذهبيين، محدّقاً إلى أنستوميس: «لماذا نأتي بمهرجّين يشيرون فينا الرغبة في ذبحهم، لكننا لا نذبحهم؟».

دخلت المزيّتان سافيتّوس، وأختها رؤسينا، إلى الكهف ذي النقوش الباذخة على جدرانها. نقوش مخلوقات البحر المجتّحة. تقدّمتا بجلديهما النقيبيّ البياض إلى السدّة العالية درجتين لا غير، حيث جلس الأمير مستظلاً حُلصاءه، وأمناء إدارة هايدراهوداهوس. صعدتا درجةً واحدةً وجلستا على بطنيهما قبالة وجه الأمير، الذي انحرف قليلاً ليواجههما، مديراً جنبه الأيمن للأعيان الجالسين، بعدما أوماً إلى أنستوميس أن تجلس على الفرش المبسوطة على أرض الكهف الأعظم. أخرجت المزيّتان أصباعهما من صندوقين صغيرين، مكسوّين برقائق النحاس الأحمر. مشطتا شعر الأمير المُسدّل على أذنيه. مشطتا لحيته المدبّبة القصيرة، ثم بدأتا في تزيين وجهه بتؤدة في الحركة، ورقّة في اللمس.

الهوداهوس، أجمعون، دأبوا على التبرّج: الذكور، والإناث. أما الأطفال فاكتفوا لهم بخطوط من اللون على ذقونهم. غير أن الأمير ثيوني اتّخذ لنفسه نوعين من زينة الوجه بالأصابع: تبرّج خفيف داخل كهف مجلسه، بين الخُلصاء والأمناء والعائلة، وتبرّج ثقيل أشبه بالقناع إذا خرج إلى كهوف الإدارات، أو الساحات، أو استعراض أمور رعيته في الأسواق، والحقول، وحلبات سباق الهوداهوس الشعراء يلقون أشعارهم وهم يركضون إلى أن يستنفذ أحدهم الهواء من رئتيه فيسقط سريعاً من الإرهاق، فيخسر.

وجه الأمير بلا قناع من الأصباغ لم يألفه العامّة. بقي من أسرار الكهف الأعظم - «الكهف العقل» كما اعتاد الحرّس الأقوياء أن يتهامسوا بالاسم. ظلّ فراشة بلون الحديد كانت تغطي وجه الأمير، عادةً، إذا غادر الكهف. وقد أضافت المزيّتان الأختان خمسة أهداب حمراء، فوق الجلد، تحت كل جفن من الجفنين السفليين لعيني ثيوني. رفعتا المرأة ليري الإضافة فابتسم راضياً. حنّم خانياس فشرح صمت المجلس: «لقد حلمتُ حلماً كاملاً» قال، فانفجرت القهقهات. كاهن الطواحين كيدرومي ظل صامتاً. لمس شاربيه المفرطين في طولهما، المفتولين، والمربوطين إلى أذنيه بخيطين من الحرير كقوسين، على جانبي وجهه الحليق اللحية. حنّم خانياس ثانية، وأخرج من جعبة تتدلى من كتفه عظمة رقيقة: «هذا ما تبقى من آخر هوداهوس أكلتُه في حلمي، وأنا ميت». ارتفعت القهقهات من جديد. تمتم الكاهن ممتعضاً: «ما الخطوة التالية بعد موتك، يا خانياس؟».

«أنا الهوداهوس خانياس، سأبدأ بالتعرّف إلى موتي»، قال المهرجّ.
سهل الأمير سهيلاً خافتاً: «أريد أنا أيضاً أن أعرف إلى موتك. أهو مُضجّر إلى هذا الحد؟».

«لم تتعرّف إليه، بعدُ، أيها الهوداهوس الأمير»، قال خانياس، فرد ثيوي: «هو مُضجّر، أو ضجران، ولا شيء آخر. من يأخذ المخلوقات على النحو ذاته، صامتين بعد عبوره، هو

مُضَجْرٌ، أو ضجران». وهزَّ ذؤابة الشعر المتدلّية على جبينه: «أيتها اليهوداهوس أنستوميس. طلبتُك لأعرف إن كان في علومك معنىً مآ للفظة «أورسين». هي ليست من لغة أهل هايدراهوداهوس، أو جوارها. ربما هي اختلاطُ حروف»، قال.

«أورسين..»، تمت أنستوميس. كررت اللفظة أربع مرات. «ليس في حقل ذاكرتي بزرّة نبتٌ منها معنىٌ لهذا اللفظ، أيها اليهوداهوس الأمير. لكنني سأكرّر بلساني على عقلي حتى ينهشّم. ربما استطعتُ إعادة جَمْعِ حُطامِ هذا اللفظ نَسْقاً من صور». وأغمضت عينيهما الواسعتين لحظات. فتحتهما: «نصفُ صورة. مخلوقٌ بنصفٍ واحد. هذا ما نبتُ في حقل خيالي، أيها اليهوداهوس الأمير». حَمَحَمَتْ حَمَحَمَةً خافتةً: «إنه مخلوقٌ بلا ذاكرة».

«كيف تميّز بين صورة كائنٍ بذاكرةٍ وآخر بلا ذاكرة، أيتها اليهوداهوس أنستوميس؟»، سألها الأمير وهو يسك بيد المُرْتَبَةِ روسينا الرقيقة كظلّ سنبلة.

«الكائنُ، الذي يتأمّل كائناً آخر مثله ناقصَ الأعضاء، هو بلا ذاكرة. لديّ رسومٌ في الكهف الثامن من مقاصير فيفلافيدي: طيور لا أجنحة لها. لا أذيال. متواجهَةٌ صفوفاً يتأمل أحدها الآخر على نحوٍ لا يُطاق»، قالت أنستوميس. عبرتُ خيالها ريحٌ قَلِقَةٌ إذ تذكّرت، فجاءةً، اللوح المُهَشَّم، الذي يحملُ تحت الكائنات الواقفة، كلُّ منها، على ساقين.

سهل خانياس: «نحن اليهوداهوس ذاكرةٌ فقدناها كائنٌ ما فظلّ بلا ذاكرة. إنه كائن يدور على نفسه في ذاكرتنا نحن. لا نعثر عليه لأننا نفقد مكانه في دورانه على نفسه، وهو لا يعثر علينا لأنه موجود داخل ما يحاول العثور عليه» قال، فأخرسه الأمير: «أريد مهرجاً يا خانياس. لم تعد لك ذاكرةٌ مهرج».

دخلت حمامة من كوةٍ في أعالي الكهف. حوّمت قليلاً وحطت على ظهر الأمير: «أعطني بعض حبوب مآ في حقيبتك، أيها اليهوداهوس الكاهن»، قال، فانتقلت حفته من بذور القمح، عبر الأيدي، حتى وصلت إلى يد المُرْتَبَةِ سافينوس. نثرت الأنثى النقية البيضاء الحبوب قرب صدر الأمير. مشت حمامة الزّاجل فوق ظهره، ثم قفزت فحطت على كتفه اليميني، ثم نزلت لتنقر الحبوب. طوّقها الأمير بيديه في رقّةٍ فاستسلمت لهما. حملها بيد، وفكّ بالأخرى الخيط الأزرق الذي شدّ إلى ساقها ريشةً بيضاء صغيرة. شمّ الريشة: «هذه من صدّر طير الألباتروس. إنها رسالة الميناء: لقد وصل اليهوداهوس الملاحون بالمعادن من مناجم جُزر لوتّان»، قال، وأرخى يديه عن حمامة الزّاجل، فواصلت تُقر الحبوب.

نهض الأمير عن السدّة الوثيرة. نهضت المزينتان، والحاضرون. تهباً الحرس من حول صحن الكهف في خوذاتهم الحديد الشبيهة بأقنعة تصل حتى أنوفهم. اهتزت شواربهم الكثيفة المفرطة في طولها، في وجوههم الحليقة اللحي. نزل الأمير الدرجتين. وقف برهة: «كل اثنين منكم سيسردان لي، منذ صباح الغد، حُلماً»، قال، فسقطت كلماته كرصاص مصهور فوق الرؤوس. صهلوا صهيلاً ملجوماً، مُمَرِّقاً، مذعوراً، مرتجفاً. نطق الكاهن: - الحلمُ لونٌ. إن كشفناه أهنّاه، أيها اليهوداهوس الأمير.

بركات: كهوف هايدزاهود/هوس
«سأهينُ اللونَ»، قال الأمير. اهتزت الأدرجُ التي تقف عليها الحقائقُ في خيال مخلوقات الهوداهوس: لا يُقسِمونَ إلا باللون. لا يتضرعونَ إلا إلى الإله - اللون.
«أنت، أيها الهوداهوس الكاهن، وتابعكُ الوفيُّ الهوداهوس تيتوثنا، ستكونان طليعة من يتشرَّفُ صباحي أن يصغي إلى حلمهما. سنعطيك لقبَ كاهن الصباح أيضاً، يا كاهن الطواحين»، قال الأمير، فتبلبل لونُ الكاهن.
مشى الأمير يواكبهُ المحاربون بخناجر على مقابضها نُقشُ السنبله والحوت. خرجوا من الكهف الأعظم إلى حدائق الصَّخر فتلقَّاهم الموسيقيون، تحت الشمس، بالمزامير والقيثار.

تحقيقات الكاهن كيدرومي

سهل الكاهن كيدرومي، في طبقة الأرض الثالثة تحت كهف الطواحين الشاسع الأرجاء. دار من حول مخلوق الهوداهوس الأبيض، المقيّد القوائم. «سأقطع ذلك»، قال فطقت أسنانُ المخلوق المقيّد.

«ما الحلمُ الكامل؟. سأعيدكُ طليقاً إن شرحتَ لي ما كنتَ تشرثر به للطحَّانين ساعة قيلولتهم»، قال الكاهن. سهل ثانيةً: «أهي هرطقه ما تفوَّهتَ به، أم رؤيا؟». «لا هذه ولاتلك، أيها الهوداهوس الكاهن. الأمرُ تمرينٌ على الوحدة»، قال الهوداهوس المقيّد. تدخَّل أكسيانوس، أخو الأمير، المصغي إلى المحاورة: «ما نفَعك من الوحدة، أيها الشقي؟».

«ذلك يخصني أيها الهوداهوس الضَّجران»، قال المخلوقُ المقيّد. حَمَحَمَ أكسيانوس الواقف إلى جوار تيتوثنا العملاق. التمتع في عينيه بذور الذهب المنثورة من المشاعل القوية على جدران الكهف: «أتعرفني؟»، قتمت باحتدامٍ خفيفٍ، فردَّ المخلوق المقيّد: «لا، أيها الهوداهوس. لكن لصوتك نبرة المروِّضين». «ما الذي يجعلك تعتقد أنني ضجران؟»، سأله أكسيانوس، فرد المخلوقُ المقيّد: «ما الذي أفعله هنا؟ أنت تتسلى عن ضجرك باستنطاعي. أمَّا الكاهن..» وصمتَ محدقاً إلى عيني كيدرومي الغائرتين من ثقل ضراعاته إلى الريح. سهل الكاهن: «وماذا عنِّي؟».

لم ينطق المخلوق المقيّد.

«أتعرف ماذا يعني أن أقطع ذلك؟ لامخلوق يعرفُ الشقاء، وجهاً لوجه، أكثر من هوداهوس بلا ذيل. أخبرني ما تكتمه من خواصِّ الحلم الكامل. أم أنت تهذي؟ ليس في علوم مخلوقات الهوداهوس، أو سماء هايدراهوداهوس وأرضها، من ادَّعى حلماً كاملاً. أمَّا أنت...». لجم بقية الكلمات. نظر إلى أكسيانوس: «أتظنُّ أن له شركاء، أيضاً، يدعون حلول هذي الرؤيا فيهم، أيها الهوداهوس أكسيانوس - راعي الأمَّهات السهول؟»، والتفت، ثانيةً، إلى المخلوق المقيّد بوجهٍ قَلِقٍ. انخطف قلبه من فكرته هو - فكرة الكاهن الوصيِّ على طباع العلوم: «ما الحلمُ

الكامل، أيها الشقي؟».

«هو أن لا أحتاج شريكاً يقودني إلى النصف الآخر من حلمي، أو أقوده إلى النصف الآخر من حلمه. حلمٌ كاملٌ ليس حلماً فحسب، بل تمرينٌ على إملأءٍ سرٌّ على أنفسنا لا يخصُّ غيرنا»، قال اليهوداهوس المقيّد.

حمحم كيدرومي: «ما حاجتُك إلى الأسرار؟». رد اليهوداهوس المقيّد:
- هي حاجتي إلى الوحدة.

«ما حاجتُك إلى الوحدة؟»، دمدم كيدرومي. تدخل أكسيانوس:

- الوحدة حيلة. ماذا تتدبّر في الوحدة غير الحيلة، أيها الشقي؟.

«أتدبّر لنفسي سرّها»، ردّ المخلوق المقيّد.

حمحم كيدرومي: «أنت تتمرّد على هايدراهوداهوس؟».

«أنت تُغالي في ريبتك، أيها اليهوداهوس الكاهن. ليس تمرّداً أن يكون لي سرٌّ لا يخصُّ

غيري»، قال اليهوداهوس المقيّد.

«كلُّ سرٍّ تمرّد»، قال كيدرومي.

«ألا سرٌّ لك، أيها اليهوداهوس الكاهن؟»، ساءله المقيّد، فرد كيدرومي حانقاً: «لي أسرارُ

اللون. وهي الحقائق».

سهل أكسيانوس: «ألك، حقاً، حلمٌ كامل، أيها الشقي؟».

«ما الخوف من أن يكون لي حلمٌ كامل، أيها اليهوداهوس المروّض؟»، قال المقيّد، فصفعه

أكسيانوس: «لو تعرف من أنا؟».

«لا أريد أن أعرف من أنت»، قال المقيّد.

دار كيدرومي من حول اليهوداهوس المقيّد، المجرّد من خنجره. حمحم من خنجرته الباردة:

«لا تحتاج إلى شريكٍ يقودك، أو تقوده، إلى النصف الآخر من حلمكما، الآن، أليس كذلك؟.

كيف يتفق لك أن تصل، وحدك، إلى النصف الآخر من حلمك؟»، قال، فردّ المقيّد: «أورسين

يقودني».

«أورسين؟!»، حمحم كيدرومي بصوتٍ مشروخ. وردّد: «أقول: أورسين؟».

«نعم. إنه يعرف الممرّات الدفينة كلّها. لا يقودني في ممرٍّ واحد، إلى حلمي، مرتين. وكلّما

قادني عثرتُ عليّ كما لو كنتُ كائناً آخرَ بي حينئذٍ عاصفٌ إلى الكائن الذي أعتز عليه؛ أي:

عليّ. أورسين، أبداً، هناك»، ردّ المقيّد.

«ما معنى هذا الاسم: أورسين؟»، ساءله أكسيانوس، فرد المقيّد:

- لا أعرف. هو يدعو نفسه أورسين.

«ماذا يشبه أورسين، هذا؟، ساءله الكاهن.

«مخلوق يشبه نصفنا الأمامي، واقف على ساقين». ردّ المقيّد.

لم يعرف كيدرومي إلى من يتصرّع، في برهته تلك، كي ينجو من هبوب القلق عليه. حصّن

بركات: كهوف هايدزاهود/هوس
هايدراهوداهوس بأسوار من حجر خياله، كأنما أبصرها ثقتحم بمخلوق من ربح. بينه وبين الريح مواثيق الكاهن المروض ومواثيق المجهول المروض. كلما هبت الريح قوية، من حصن السماء اللامرئي على سهول هايدراهوداهوس، خرج كيدرومي إلى قمة الهضبة التي تحتضن، في جوفها الشاسع، كهوف الطواحين المتصلة بممرات واسعة، مُحْتَمِرَة من الضياء الآتي عبر الكوى العميقة في الجدران. هناك، مُحاطاً بالفهود التسعة، التي يسك بسلاسلها العملاق تيتونا وأخوه ريسمو، يرفع ابتهالة. ابتهاال هايدراهوداهوس الأزلي إلى حقائق اللون العشر أن تتمدد السهول أبعد؛ أن تتسع أكثر؛ أن تتمرد على تخومها فتجتاح الجهات؛ أن تستولي على كل أرض تجاورها؛ أن تضم إلى ملكها كل عراء آخر؛ أن تشق لها معابر فوق مياه البحر؛ أن تفتح بمفاتيح النبات - خزائن الأفق الذي يحاصر كل أفق؛ أن تلد نفسها من أرحام على عدد أنفاس الكون؛ أن تعمم حقائقها على الحقائق؛ أن تجمع في حلفها آلهة الرمل، والحجر، والأرض السبخة؛ أن تتصل بالسماء؛ أن تصعد السماء: «آيتها السماء السهل، يا سماء الذرة، والقمح، والدخن. أيها السهل السماء، يا سهل الغيم المعتصر من عناقيد كروم الأفلاك»، يدمدم كيدرومي، وقد شردت الريح القوية شعرة، وشاربيه المفرطين في طولهما. «سهول الإله - اللون ستبتكر جهات وراء الجهات؛ أبعاداً وراء الأبعاد؛ وساعة وراء كل ساعة. سهولك أيها الإله اللون ستقود الأمة القمح، والأمة الذرة، والأمة الدخن، إلى انتصار الوجود المُشرع بعون من عقل السهول».

كيدرومي، الحاذق في مزج رائحته برائحة الفهود في هبوب الريح على سهول هايدراهوداهوس، كان منهوباً، أشعث الخيال، وهو يستنطق الهوداهوس المقيّد: «أورسين؟ بأي لغة يتحدث أورسين؟».

«لا لغة لأورسين»، قال المقيّد. «ألمحة، في حلمي، فأتبعه. إنه مخلوق رحالة».

«أنت من ساكني كهوف الهضبات الشمالية، أيها الشقي. لماذا لا تغادر أورسين الرحالة كهوفكم إلى كهوفنا؟»، سأله أكسيانوس. ردّ المقيّد: «حين تؤمن أنك تستطيع أن تكون رحالة أيضاً، مثل أورسين، يحضر أورسين».

سهل كيدرومي فتردد صهيله في طبقات الكهف: «أنت تسخر مني؟ أستطيع أن أكون رحالة؛ أن أقشر الأمكنة بعبور ظلي عليها، أيها الشقي».

سهل المقيّد، بدوره، صهلاً خافتاً مجروحاً: «لا تحفظ الأمكنة، كلها، لك سلطتك ذاتها، أيها الكاهن».

بوغت كيدرومي. أحس الأمكنة تُقشر ظلّه في عبوره منها. خفف نبرة لسانه الفظة: «أما من وسيلة، غير ملكة الرحالين، لاستدراج أورسين إلى خيال أحلامنا؟»، قال، فردّ المقيّد:

- ما حاجتك، أيها الكاهن، إلى حلم كامل؟

«ذلك ما سأسال نفسي بعد العثور على أورسين»، رد كيدرومي.

«لن تكون لك سلطة، إذا التقيت أورسين، إلا عليك. ستكون وحيداً»، قال المقيّد.

«فلاكنٌ وحيداً، لا سلطة لي إلاً عليّ. أعطني أورسين، أيها الشقيُّ»، قال كيدرومي بصوتٍ فيه سهيلٌ ممتزجٌ بفحيح.

«خذُ أورسين، إذاً»، تتمم المقيّد، وأغمض عينيه.

نظر الكاهن إلى أكسيانوس النافذِ الصبرِ وهو يُحَمِّمُ حَمَحَمَةً فيها وعيدٌ: «ما قصدُ هذا الشقي من قوله: خذُ أورسين؟».

هزُّ أكسيانوس ذيله هزاً قوياً، وضرب بحوافره الأرضَ الحجرَ: «قلنُّه هذا الموقف، أيها الهوداهوس الكاهن. الهواءُ يعتصرُنِي»، قال.

دار الكاهنُ من حول المخلوق المقيّد: «تقول لي أن آخذُ أورسين. حسناً. كيف آخذُ أورسين؟». بقي المقيّد على صمته، مُغمَضُ العينين. تقدم منه أكسيانوس. سلَّ خنجره الأيسرَ، الذي التمعت شرارة ذهبية على نُصله. مرَّت الشفرةُ، حَطُفاً، على حجرة المخلوق المقيّد. تخبط المخلوقُ في قيوده مصعوقاً. انقلب على جنبه في محاولته الوقوف دون جدوى. خرج شخيرٌ مصحوبٌ بالدم من حنجرته المقطوعة. استسلم لقضاء اللعبة.

تراجع الكاهن قليلاً حتى لا تلمس حوافره دقاتُ الدَّمِ القوية. صارَ إلى جوار أكسيانوس ذي الشعر الأصفر القصير، والعباءة الطويلة الخضراء. غمر الصمتُ الكهفَ في الطبقة الثالثة، السفلى. سُمِعَتِ الرِّحَى قوِيَةً في أُنينها، من طبقة كهف الطواحين. سُمِعَ لهاثُ مخلوقات الهوداهوس متمهانياً مع الهواء الشاحب، وهم يدورون بالحجارة الدائرية الضخمة فوق بزور الحياة - القمح، والذرة، والدُّخْن. لمس أكسيانوس عَضُدَ كيدرومي: «أتريد أورسين، حقاً؟»، قال، فوضع الكاهن ذراعيه متصالبتين على صدره: «أنت تمزح، أيها الهوداهوس أكسيانوس؟ من هو أورسين؟ أين أورسين؟».

«لنفترض أنك تستطيع استدراج أورسين إلى حلمك»، قال أكسيانوس. أرخى الكاهن ذراعيه، حدَّقَ إلى الهوداهوس المقيّد القليل: «خيالي مضطربٌ قليلاً - خيالٌ يقيني. هذا الشقيُّ أثارَ فيّ حدَسَ الطَّلَسَمَات»، والتفت بوجهه إلى أكسيانوس: «ماذا لو كانت الوحدهُ، التي يغذيها أورسين بزبدة الحلم الكامل، سُلْطَةً أكبر مما نملك، أيها الهوداهوس أكسيانوس؟ أشمُّ في الهواءِ تمرداً»، قال.

«ليبق الأمرُ بيني وبينك، أيها الهوداهوس الكاهن. أنا وأنت، فحسب، سنتتبع ساكني كهوف الهضاب الشمالية. سنختطف أورسين. أخي الأمير ثيوني ليس له صبرك وصبري. سيقتل أورسين، أيضاً». قال أكسيانوس.

«وصل أورسين إلينا قبل أن نصل إليه»، قال كيدرومي. سهل سهيلاً ممتزجاً بالفهقهة: «هذا المخلوق الواقف على ساقين بدأ قفزته من خيالك إلى خيالي، أيها الهوداهوس أكسيانوس. تعال نخرج من هنا. غداً سأصغي إلى الريح في مكاشفاتها. لربما تعرف، هي شيئاً من أسرار أورسين».

صعد أكسيانوس، وكيدرومي، الأدراج المسطحة، الواسعة، في اتجاه المخرَج إلى طبقات

بركات: كهوف هايدزاهود/هوس الكهوف الأخرى. تقدّم تيتونا العملاق من جثة الهوداهوس القليل حاملاً حبلاً. لفّ الحبل على النصف الآدمي من جذع المخلوق الصامت، وجره، عبر الممر الضيق، الملتوي، المُفضي إلى ضفة نهر سيّتام ذي الرمل الأصفر.

وقتاً بعد آخر سيجر تيتونا، بحبله، جثة قتيلٍ إلى ضفة سيتام. سينتظره، هناك، أربعة من حرس المخازن الأقوياء. سينقلون الجثث إلى طوفٍ فوق الماء. سيتولى إثنان، وهما جالسان، دقّع الطوف بمجذافين إلى أحراش القصب، في ملتقى نهر سيتام ببحيرة سايدين ذات الضباب المؤرّق. سيحرقون الجثث هناك، وسيلقون بالرّمّم والرّماد في الماء المُوجّل.

سيعتقد أهل كهوف الهضبات الشمالية أن تيتونا، ومعاونيه من حرس المخازن، يختارون عمّالاً للمطاحن، أو حرّاثين للسهول الشرقية، أو مُرَمِّينَ للأعمدة في الكهوف الكبرى، المحيطة بالكهف الأعظم - «الكهف العقل»، كما يسميه حرسُ الأمير همساً. لكنهم سيلحظون أن مَنْ يُؤخذ لا يعود. سينمو هلعٌ مستورٌ كثمرةٍ على شجرة الريح القادمة من السماء الثانية - سماء المجهول الكسولة. سيوسّطون بعض الأعيان، من المحاربين الكهول، لرفع قلّتهم إلى الكاهن، عبر صور حروفٍ منحوتةٍ على الأجرّ الرطب، غير المشويّ. سيراوغ الكاهن كيدرومي مراوغة لسان المعقول: «إن مات أحد، في أيما مكان من هايدراهوداهوس، تظهر جثته في أخدود تاييس محنّطةً بنعمة ربح الجفاف. من ليست جثته هناك فهو، إذًا، حيٌّ». سيتقصّى البعض، من أهل كهوف الهضبات الشمالية، أحوال الموتى في أخدود تاييس، لكنهم سيرجعون بلا نبيأ عن مفقود واحد: لا جثث لهم هناك. سيّحارون. سيتبلبلون. أما أرواح المفقودين، المتمزجة بأرواح القصب، وحشرات الدعاسيق، واليسرّوع، والسُرمان، فهي ستقدّم - محمولةً على دخان المُحرقة - إلى أخدود تاييس.

خيال تيتونا

ناعماً تماوج هسيسُ القلادات في مخدع الأميرة أنيكساميدا. الخادمات الثلاث، اللواتي بزغن مع شعاعات الفجر في ممرات الكهف الزمرديّ الحجر، أحضرنَ الأمشاطَ والمرايا لسيداتهنّ، بعد خروج الأمير إلى المقصورة الخاصة بتأمّلات الفجر - تأمّلات النظر إلى البلورة السوداء، السداسية السطوح، المنتصبة على عمودٍ صغيرٍ من اليشبّ ثابتٍ فوق مصطبة صخرية. أعدنّ ترتيبَ جدائلها الستّ المائلة إلى الزرقة، وربطن إلى حُصلٍ من شَعْر ذيلها سلاسل الفضة الرقيقة، والودّع الأصفر. عاد الأمير فنهضت الخادمات من حول سريرها الدائري. رفعن مراياهنّ أمام وجهه ليستطلع في عينيه أدراج الليل. لم ينظر إلى نفسه في المرايا، بل إلى صدرهن المحجوبة بقلادات من الخرز تتدلى من أعناقهنّ: «هسيسُ قلاداتكنّ هسيسُ منعش»، قال، فتضاحكن. التفت إلى زوجته: «ماذا تفعل خادماك كي يُبتقنَ أثداءً هن ناهدةً، ناتئةً، أيتها الهوداهوس الأميرة؟».

رمته الأميرةُ بمشط في يدها. صهلت متوعّدةً. صهل الأمير ضاحكاً. تكلمت الأنثى

الجالسة على سريها: «خيالٌ كهُولٍ مثلك يجعل أئداءهنَّ نائتةً، وهي ليست ناهدةً نائتةً». أبدأت الخادِماتُ عتاباً صامتاً. حَمَحَمْنَ. تجاهلتِ الأَميرةُ إشارتهنَّ. نطقتُ: «ثدياي نائتان أيضاً. أرَضتُ ستَّ بناتٍ من صلبك، وما زالنا نائتين، صلبين، لكن خيالك يُهدُّهُما». عاد الأمير ببصره الجريء إلى صدور الخادِمات، اللواتي تدلَّت تحت أباطهن خناجرٌ متموجة كأحناش الربيع السوداء: «أنتِ زوجتي، أيتها الهوداهوس الأَميرة. ثديك أمرٌ آخر»، قال، فصهلت أنيكساميدا سهيلَ الاستنكار: «وأنتِ زوجي، أيها الهوداهوس الأمير. انظُرْ إليَّ بخيالٍ قُبَلتِكَ الأولى على جسدي».

دخلت بناتُ الأمير الستُّ، البلقاوات كأمهنَّ، إلى الكهف الزمردِيّ الحجر. دغدغ بعضهنَّ خواصر الخادِماتِ مُداعبةً. إحداهنَّ اقتربت من أبيها بقفصٍ فيه ثلاثٌ من حَمَامِ الزاجل - الحَمَامِ الرسول بين الأمير وقواده في مقاطعات هايدراهوداهوس. هزَّ ثيوني رأسه: «لن أبعث برسائلٍ إلى أحد اليوم. تأملتُ البلورة السوداء فلم تنثر على خيالي صوراً أستنطِقُها». ابتسم: «أنتِ في السادسة الآن، يا ابنتي تارُوس. عليك أن تختاري زوجاً في الخريف القادم». في السادسة يتزوج مخلوق الهوداهوس. يكتهل في العشرين. يشيخ في الثلاثين. إن لم يمتَّ ضعفاً، أو مصادفةً، حتى الحادية والثلاثين، حمل معه حدوةً من حدوات أمه الميته، ومضى إلى أخدود تاييس. ربح الجفافِ الصاخبة، في هبوبها العريق، تنجزُ التُّقلة الباقية إلى الصمت العريق.

فكَّرَ ثيوني في اكتهاله قليلاً. داعب رؤوس بناته بيده فأسقط عنها قُبَعات الريش الصغيرة. «لماذا تعكسني المرأة على نحوٍ لا أرى نُفسي عليه؟»، قال، وأخذ من إحدى الخادِمات مرآتها. تطلَّع إلى وجهه. «لا أرى ضجري».

قرب خِوان الإفطار، حيث اجتمع الخلصاء، والأمناء، وأعيانُ إدارة الكهف الأعظم، ذلك الصباح، تحسَّس الأمير كيساً من جلد أصفر بيديه، مُلَفَّتاً أنظارَ المجلساء. دار ببصره عليهم واحداً واحداً، حتى استقرَّ على الفلَكِيّ الشاعر ميُدَراس: «أستطيع أن تخمّن ما في كيسي هذا، أيها الهوداهوس ميُدَراس، الناطق بلسان العِلْمِ الكُلِّيِّ؟». حكَّ ميُدَراس رأسه ذا الشَّعر المنتصب كعُرْفِ الديك. تكلم: «في الأرجح إنها صورتُك، أيها الهوداهوس الأمير».

«تعرف كيف تنجو، أبداً. كلُّ شيءٍ قد يكون صورتِي»، قال الأمير. «أعذرونا. لم نفهم»، قال كيدرومي الجالس لصق ميُدَراس. رَبَّت ميُدَراس على عَضُد الكاهن الموشوم بأرقام المعاني المؤجَّلة: «ما تفهمه، وما لا تفهمه؛ ما يكون فراغاً أو امتلاءً؛ ما يكون بُعداً أو قُرْباً؛ ما يكون نهايةً أو بدايةً؛ ما يكون ظناً أو يقيناً؛ ما يكون عبارةً أو إشارةً؛ ما يكون وما لا يكون: كلُّها صورةُ الأمير».

فتح ثيوني الكيس، واستخرج منها المرأة الصغيرة، ذات المقيض الخشبي، التي استعارها من إحدى الخادِمات: «هذه صورتِي»، قال. تطلَّع إلى وجهه، ثم أدارها على المجلساء: «ترون صورتِي». صَهَل صهيلاً خافتاً. «لماذا لا نُقسِمُ بالمرأة؟».

بركات: كهوف هايدزاهود/هوس
حَمَحَمَ الجالسون استنكاراً. «لا نقسمُ بغير اللون»، قال عميدُ خزائن الأسلحة - الخناجر.
«ما اللون؟»، ساء لهم الأمير، وهو يمضغ زهرة قرعٍ مخلّلة.
«أنت عاصِفٌ. روْحُكَ عاصِفَةٌ، هذا الصباح، أيها الهوداهوس الأمير»، قال عميدُ خزائن
الأسلحة - الخناجر.

تدخّل ميدرأس: «اللونُ هو المصادفةُ أيها الهوداهوس الأمير».
«ماذا تقول، أيها الفلكي ميدرأس؟ أنحن نُقسمُ بإله هو المصادفة؟»، قال الكاهن كيدرومي،
وحَمَحَمَ ممتعضاً. قرّب ميدرأس رأسه من رأس كيدرومي. كلّمه همساً وهو ينظر إلى الأمير:
«رأيت شاعراً في حلبة سباق الكهوف الغربية يشبه الأمير على نحوٍ أخافني».
«بِمَ تتهامسان؟»، ساء لهما ثيوني، فرد الكاهن وهو يمدُّ يده إلى أوراق الكراث: «الهوداهوس
ميدرأس ينحِتُ التوريات».

وجّه ثيوني بصره إلى ميدرأس: «اللون هو المصادفة؟ هذا إلهامٌ فلكيٌّ». حَمَحَمَ: «أنت
على صوابٍ. المصادفةُ تجعلنا سعداء أو أشقياء، محظوظين، أو منحوسين، خاسرين، أو
منتصرين».

«أنت عاصِفٌ، أيها الهوداهوس الأمير. روْحُكَ تنحرُ الصباحَ نَحْرًا على خِوان الإفطار»،
قال عميدُ خزائن الأسلحة.

حدّق إليه ثيوني. توقّف عن المضغ. «إصع»، قال بصوتٍ فيه توبيخٌ: «ما من شيء يتجلّى
فيه اللونُ بكَماله إلاّ المرآة. إنها تُقسّمُ اللون، وتنبّضُ اللون، ودورهُ اللون الفلكية من بزوغ
العناصر حتى أفولها. سأقسّم، منذ اليوم، باللون، وبالمرآة، وبالمصادفة».

سهل الكاهن كيدرومي سهيلاً مُختنقاً، فقاطعه ثيوني بصهيلٍ صახب: «ما اتّفأنا، أيها
الهوداهوس الكاهن؟ ستسرد لي، أنت وتابعك تيتونا، حُلماً تشاركتُمَا فيه»، والتفت صوب
الجدار الشمالي للكهف، حيث يقف العملاق تيتونا على مقربة من الحرس. فهم تيتونا الإشارة.
تقدم حتى قارب الكاهن الجالس قرب الخوان. جلس بدوره. سادت الحمحاتُ المتقطعةُ برهَةً، ثم
حَمَدتُ. ترقرتُ في العيون المرتبكة مرارةً إثر ظِلٍّ غيرِ مروّضٍ؛ سرّاً من أسرار هايدراهوداهوس،
وها هو يوشك على الخضوع للسرود الثرثار. «أعلينا أن نفعل هذا، أيها الهوداهوس الأمير؟»،
قالت أنيكساميدا في لوعة. أطلق ثيوني حَمَحَمَةً ناعمةً: «لقد سردنا، مرّةً، لحلصاء الكهف
الأعظم حلمنا، أنا وأنت، أيتها الهوداهوس الأميرة. ليس هناك ما يخيف». مسح يديه بطرف
عباءته القصيرة. «ها نحن نصغي، أيها الهوداهوس كيدرومي، كاهن الطواحين». وضع يده
اليسرى على مقبض خنجره: «كاهن الطواحين، وكاهن الصباح، أيضاً». سهل في مَرَحٍ.

نطق تيتونا العملاق البنيّ الداكن، ذو العباءة السوداء الطويلة. اهتزت شاربايه بقوة من عبور
صوته الخفيض المرتجف. صوت التابع الذي لم يتعوّد الكلام إلاّ همساً: «كنتُ في أرضِ عراءٍ.
لا شجر. لا حجر. قطع هائل من الشيران البيضا شقّ الأفق. تكسّرت السماء كلوح زجاج، هذا
ما رأيت»، قال تيتونا.

تلمس كيدرومي، براحتي يديه، شاربيه الشبيهين بنابي خنزير بري: «كنت أنادي تيتونا أن يحيد عن طريق القطيع فلا يسمعي. ثم، فجأة، ارتفع القطيع في السماء، من فوق تيتونا بعدة أذرع. وكنت انت، أيها الهوداهوس الأمير، من يقود تلك الشيران إلى حظائرهما بين الغيم».

حمم ثيوني محممة خافتة. نقل بصره عن وجه الكاهن إلى وجه الفلكي الشاعر: «أيها الهوداهوس ميدراس، أفي علومك تأويل لحلم كهذا؟»
«لم أسمع أحلاماً كي أولها، أيها الهوداهوس الأمير. علمي رهينة مزاج الأفلاك، وطباع الأبراج السماوية»، قال ميدراس.

سهل ثيوني معترضاً: «المزاج؟ علومك ليست رهينة مصادفات، أيها الهوداهوس ميدراس. علومك ميزان»، فرد ميدراس: «للأفلاك مزاجها، وللأبراج السماوية مزاجها. المزاج مقادير». «ظننت المزاج من خصائص مخلوقات الهوداهوس. وها أنت تضع الفلك والأبراج في ميزان الأشعار، أيها الهوداهوس ميدراس»، قال ثيوني.

«الأشعار موجودة في ميزان الفلك، أيها الهوداهوس الأمير»، رد ميدراس الأسود الجلد، الأشقر الشعر، والأبيض الذيل. سهل سهيلاً خافتاً: «طالما تقصيت لك، أيها الهوداهوس الأمير، آثار العقل الذي يبتكر للكهوف مزاجاً مُقتبساً من مزاج الأفلاك. أحوال الكهوف ذاتها هي أحوال الأفلاك. كهوف هايدرا هوداهوس نظام من نُظم المُخاطبات؛ منطِق لُون، وشرائع لُون. هي صور الأبراج منقولة عن لوح الهباء السحيق - الهباء المتدلي من بكرة المركز، هناك»، وأشار بعينه إلى مقصورة تأملات الأمير، حيث تنتصب البلورة السوداء، السداسية السطوح، على عمود من اليشب.

اختلط صخب قادم من رواق في الكهف الأعظم بكلمات ميدراس، وتدرج سهيل غاضب مع الهواء المذعور. حدوات كثيرة سمعت تقرع الأرض الصقيلة الحجرية قرعاً له طعم الفوضى. نهض تيتونا العملاق ويداه على مقبضي خنجريه. قلمل حرس الأمير. حمحموا من غير أن يغادروا أمكنتهم.

دخل إلى كهف الإفطار عميد حرس الحدائق الحجرية. خلع خوذته السوداء: «المعذرة أيها الهوداهوس الأمير. حصلت حماقة جرى تصحيحها. أمر عابر. نرجو ألا يكون الصخب قد أفسد عليكم هدوء روح الصباح».

نهض الأمير مصحوباً بصهيل فيه فضول رقيق: «سأرى». فتقدمه حامل الخبر إلى رواق منفصل عن الإيوان الشرقي من الكهف الأعظم. كثير من خلاء ثيوني تتبعوه، حتى أشرف على المدرج المضي إلى دائرة النوافير، في مدخل الحدائق الحجرية، حيث تنتصب المنحوتات المتناظرة لهاكل لها أنصاف طيور وأنصاف ثيران؛ أنصاف نمور وأنصاف أسماك. تماثيل من حجر اليشب، ومن عروق المرجان الضخمة المُستخرجة من بحر ثليل الهائج، ومن اللازورد، ومن حجر يوتي به من مغاور الرمال، ذي فلز أخضر وبرتقالي، يختزن نور النهار فيضيء في

الليل.

تقرئ الأمير بعينيه سطورَ الدَّم المتقاطعة على أطراف التماثيل. ثلَّة من الحرس كانت تنظف خناجرها، لاهثة: عراكٌ مَّا تركَ أثره على رمل الحدائق، ومزجَ الهواءَ بأنفاس الخوف.

هرع اثنان من الحرس يجمعان كرات سوداء عن الأرض، ملطخة بالرمل وبالدم. صهلَ ثيوني: «أهذه حُصَى، أم أنا واهم؟»، قال، فرد عميد حرس الحدائق الحجرية: «بل هي حُصَى، أيها الهوداهوس الأمير. أربعة حاولوا اجتياز مدخل الكهف الأعظم. صدَّمهم الحرس. طوَّقهم. قُطعت حُصاهم وأذيالهم.»

«أين هم؟»، ساءله الأمير، مُحَمِّمًا، فرد العميد: «شُرِّدوا خارجَ الحدائق. سيعيشون في عارٍ.»

صهل ثيوني صهيلاً غاضباً: «كيف اجتازوا المراد حول الحدائق الحجرية؟ كيف اجتازوا دغَلَ الخناجر؟ لقد وصلوا إليّ، أيها الهوداهوس العميد. لقد وصلوا إليّ»، قال، فاهتزت شوارب المحيطين به من عبور أنفاسه القوية - أنفاس الوعيد.

«كانوا يصرخون أنهم سيذبحون تيتونا، أيها الهوداهوس الأمير. لم يكن في تهديدهم مساسٌ بك»، قال العميد، فصدَّمه ثيوني بصدرة صدمة أفقدته توازنه: «تيتونا كان في الكهف الأعظم. كادوا يصلون إلى الكهف الأعظم. كادوا يصلون إليّ. حبذا لو قطع الحرسُ خصيتيك، وأضافوه إلى حُصَى الأشقياء»، قال ثيوني. صمتَ وهو ينظر إلى أذيال مقطوعة، مدمّاة، في أيدي الحرس. صهل من جديد: «كانوا يريدون الهوداهوس تيتونا؟!». التفت إلى الكاهن: «أهنالك شيء مَّا عليّ أن أعرفه، يا كيدرومي؟». نُطق اسم الكاهن بلا لقب.

«إنه ذنبي، أيها الهوداهوس الأمير»، قال تيتونا، مقترباً من ثيوني في خضوع. حَمَمَ حَمَمَةَ الْمُعْتَرَف: «لم أجم لساني البارحة. تفوَّهتُ أمام رواد حانة السوق الأوسط بأنني سأسرد عليك نصف حلمي. غضب أحدهم. هدّدني. لكنني لم أحسبهُ جاداً. قويٌّ مثلي لا يجرؤُ الرعاغ على تهديده. أطلبُ منك ما أستحقُّ على هُفوتِي.»

رفع ثيوني يده. أوقفها في الهواء قليلاً، ثم أنزلها. «إنصَرَفَ أيها الهوداهوس تيتونا»، قال متسامحاً، فأحنى العملاقُ البنيُّ رأسه امتناناً. نظر كيدرومي، جانبياً، إلى أكسيانوس. ابتسم خيالهما من دهاء تيتونا غير المعهود.

حوافر خانياس

دار المهرج خانياس حول نفسه، أمام المصطبة الحجرية الشاسعة، العالية، التي جلس عليها ثيوني وحشدٌ من خُلصائه المقربين. صهل بقوة لكن صهيله ضاع في الغبار الذي أثاره الهوداهوس الشعراء، المتسابقون، حين عبروه بقطيعهم المندفع كريح أخذود تاييس. هداً الغبار بعد قليل. سعل خانياس. سلَّ خنجريه، في وقوفه على أرض حلبة السباق: «أيها الهوداهوس الأمير، لديّ - أنا أيضاً - شعْرٌ كتبته للجميلة أنستوميس، سألقيه عليك أنت»، فرماه ثيوني بعِرثاس

الدُّرَّة الذي في يده: «لم تَعُدْ مُسَلِيًّا، يا خانياس»، قال.
قطع الشعراءُ الشوطَ الأول من سباقهم. عبروا المصطبة التي عليها الأمير، فغطوا خانياس بالغبار، وبالكلمات الصاخبة كحوافرهم. تقاطعتُ سطورُ الهواءِ المندفَعُ من رئات الراكضين لاهثةً، متشققةً. هُمُ شعراءٌ لن يتوقفوا عن إلقاء أشعارهم، في السباق المحموم، حتى آخر نفسٍ يستطيعون حَمْلَ الكلمات عليه. من تختنق حنجرتُه، من الإعياء، يفصل عن السَّرْب الراكض. يستند إلى جدار المُدرِّج الشاسع، أو ينهار أرضاً.

«أنستوميس...»، صرخ خانياس في بلاهة، فرماه ثيوني بعرناسٍ آخر من الدُّرَّة المشوية: «هي ليست هنا، أيها المعتوه»، قال. ركع خانياس على ركبتَي قائمته الأمامتين: «بل هي هنا، أيها الهوداهوس الأمير»، وأشار إلى قلبه.

«أنت مُضَجِر، يا خانياس، قلبك مضجِرٌ»، قال ثيوني. التفت إلى زوجته أنيكساميدا: «انظري إلى أخي وزوجته هناك». تطلعت الأميرة إلى الزوجين الجالسين في مقصورة صغيرة، منحوتة في حجر المُدرِّج. «ما بهما؟»، سألتُه، فقال ثيوني: «كلُّ منهما يتكلم في البرهة التي يتكلم فيها الآخر».

«لا يريد أحدهما أن يسمع الآخر»، قالت أنيكساميدا.

«نحن نفعل ذلك، أيضاً؟»، سألتها ثيوني.

«لا. لأننا لا نتحدث أحدهنا إلى الآخر»، ردت أنيكساميدا.

«تأملها ثيوني مستنكراً: «ما هي، إذاً، هذه الثرثرات بيني وبينك في المُجالس؟»،

سألتها، فردت: «هي ما نريد أن يسمعه الآخرون».

سهل ثيوني: «ستحادث، إذاً، بصوتٍ منخفضٍ في مَجالسننا»، قال، فردت الأميرة:

«لن يسمع أحدهنا الآخر».

«كيف أستطيع إرضاءك بحقِّ اللون الإله؟»، سألتها ثيوني متذمراً، فردت أنيكساميدا

وهي تطرد بمروحة يدها ذباباً عنيداً: «أوقِفْ ضجرك».

تنهَّد ثيوني. أطلق صهيلاً خافتاً: «لن يتوقف إلا إذا تَمَرَّدتْ هايدراهوداهوس عليّ». ثم

ضحك وهو ينظر إلى خانياس. ضحك خانياس وهو يرى الأمير ضاحكاً. قرع الجرس المعلق إلى

رقبته.

بقي الأمير على ضحكه. التفت إليه الخُلصاء يظنونهم مبتهجاً من حركات خانياس. علا

الغبار حين مرَّ سربُ الهوداهوس الشعراء وقد نَقَص عدده. تتم ثيوني: «كلكم مضجرون».

مدى شهر استمع ثيوني إلى أمناء إدارة الكهف الأعظم، والخُلصاءِ المقرَّبين، وهم يسردون

عليه أنصاف أحلامهم، ساعة الإفطار في الصباح. شركاءٌ مُحْتَلِّطون: بعضهم مع زوجاتهم.

بعضهم مع أبنائهم. بعضهم مع حرسهم. إناثٌ مع إناث. ذكورٌ مع ذكور. الأقربُ مع الأقرب في

صداقته. كل اثنين يتشاركان في البوح بحلمٍ واحد: حرائقُ يطفئها الأميرُ. سهولٌ تتمدد، بلا

نهاية، في عبور الأمير عليها. أبراجٌ تتمايل من نظر الأمير إليها. طيورٌ تحمل رسائل الولاءِ

بركات: كهوف هايدزاهود/هوس
من جهات ما بعد الغيم. السماء تضيّق أضيّق من حدواته، وظلّه هو ظل الأرض. كل صاعقة
هي قلب الأمير. كل برق مشورة يقدّمها للسحاب بسخاء حكمته.

أكل الأمير، في إصغائه إلى أحلام الأعيان الكبار، من زهر القرع المخلّل، ما لم يأكله، من
قبل، في سنين. صعد خلّ الدُّراق الفجّ مع دمه، صباحاً بعد آخر، إلى خياله المنتشر عروفاً
حمراء بين تلافيف دماغه. تبدّل لسائه من لحم إلى خلّ: كلمات حامضة تتناثر في كل مكان:
«مَنْ منكم سيُبهِجُنِي بحلم يراني فيه أخسرّ ما لم يخسرّه أحد؟ أتوسّل إلى أحلامكم أن تتدبّر
لي خسارة أربح بها أمل الخسارة».

لا أحد تجرأ أن يأتي إلى ثيوني بحلم أقلّ نقاءً من ذهب حدواته.
عبّر الشعراء المتسابقون، بسطور غبار حوافرهم، تحت بصر ثيوني المثبّت على خانياس.
أحسنّ خانياس برعد في جسده.

في اليوم التالي على سباق الهوداهوس الشعراء، دعا الأمير أعيان أرض هايدراهوداهوس
إلى عشاء في كهف الولايم ذي الزوايا التسع. ستة وأربعون خواناً واطناً من المرمر الأسود،
أنصاف دوائر، توزّعت، في حلقة واسعة على أرض الكهف. كل ضيف أخذ مجلسه أمام خوان
منها يسع ستة صحون من الفخار، وإبريقاً آجرباً مليئاً بنبيد التوت الأبيض. في وسط الحلقة
مائدة مستطيلة من الصوان ذي عروق الفلزل الأصفر والقرمزي. فوق المائدة سلال الفاكهة
والخضار تنقلها الخادما إلى صحون الضيوف، مبتسمات للأنظار تترف على رسوم الحناء
على صدورهنّ العارية - رسوم طائر الرّهو فardاً جناحيه على الأتداء، منتصباً على ساقيه
النحيلتين النازلتين حتى السُرر.

دخل عازفو القيثارات الصغيرة. صهلوا صهيلاً فيه أنفاس غناء. عزفوا على آلاتهم مارين
من وراء الضيوف الجالسين. دخل طاهيان من ذوي القفازات الجلدية الحمراء. تقدّما من الأمير
الجالس، بدوره، إلى خوان صغير كالأخرين. ركع أحدهما على ركبتيه الأماميتين. همس
بكلمات، فأعطاه ثيوني إشارة الموافقة. تراجع الطاهي ناهضاً. أوماً إلى الخادما أن يُبعدن
سلال الفاكهة والخضار عن وسط المائدة الضخمة إلى أطرافها، فأبعدت الإناث السلال، على
وَقَع أَدْنَاهُنَّ الممتلئة عافيةً.

سهل الطاهيان صهيلاً خافتاً فيه وسوسة لا تكون إلا في حناجر الطهاة المخصّين في
عموم هايدراهوداهوس: يخصونهم كي يشردّ النسيان شهوات خيالهم إلا شهوات ابتكار ممالك
من النكهات، وشرائع من قدسيّة الطعم.

عبر صهيل الطاهين، ذوي الحناجر الأربعة البيضاء المقابض، إلى رسول الإشارة الأخيرة،
الواقف في ممر المطايخ. أعطى الرسول الإشارة فتقدم سته من الهوداهوس بمحقة كبيرة، دائرية،
على جنبين منها ست حلقات من الحديد تستعين بها الأيدي على رفعها. أوصلوا المحقة إلى
المائدة الصوان الضخمة فوضعوها في منتصفها. سقطت سلّتان من الخضار فهزعت الخادما
إلى جمّعها.

هرم، أو ما يشبه هرمًا كبيراً، انتصب فوق المحقة، مغطىً بغطاءٍ من نسيج القصب أشبه بقبة. صعدت روائح الشواء. صعد جدال التوابل الخفي. جدال العصور الناضجة بتعاليم النار ذات المراتب العشر.

بلل الترقب الشهى السنة الضيوف، ووزعت نكهة الشحم الذائب حصص خيالها عليهم. أما الأمير إلى الهوداهوس الستة أن يرفعوا القبة القصب، فرفعها اثنان منهم بحركة سريعة. بان الهرم الذي كان تحتها.

علا الصهيل في كهف الولايم ذي الزوايا التسع. نهضت الأميرة وهولت هاربة. نهض الكثير من الضيوف مصعوقين، وارتد الآخرون عن الأخوة وقد بهتوا: إنها جثة خانياس مشوية على المحقة، جالسة في كامل هيئتها. الجرس في عنقه، والحدوة على جبينه. تحت إبطيه خنجره. أسنانه عارية تقلصت عنها شفتاه. في فمه غصن ذو ورق كثيف، ومن حول هيكله الجالس دائرة من البط والحمام المشويين. قهقه ثيوني: «انظروا إلى حوافره. إنه يرتدي حدواته»، قال، ثم صهل صهيلاً موحشاً: «لم أعد أتذكر متى كان خانياس مضحكاً. ها هو مضحك، أخيراً».

تاييس

أخرجت أنستوميس قطعة حجر من كيسها الحشن المعلق إلى كتفها. تماوجت جدائلها السوداء العشرون في عبور الريح الجافة - ريح الرمال النزقة. أمسكت بعقد الخرز والودع الذي يغطي صدرها بكثافته كدرع: «أيه لوعة شلت الوجود فلم يُنجز أشكالكم؟»، قالت، وهي تتفحص أثر النحت في قطعة الحجر المهشمة. حادت قليلاً عن مجرى الريح، محتمية بجدار الصدع في أخدود تاييس.

لا تعرف أنستوميس ما الذي قادها من نزهتها على ضفاف بحيرة سايدين إلى أخدود تاييس - أخدود موتى الهوداهوس المنتصبين وقوفاً هياكل متحجرة من جفافها. على جانبي صدع الأخدود العميق جثث تكاد تتشابه ألونها، التي بهتت تحت أنفاس الشمس القوية وأختها الريح. كل مخلوق محتضر، من الهوداهوس، يجري إيقافه على قوائمه باستقامة، مسنوداً بقضبان الخيزران القوية فلا يتراخي إذا استسلم للموت. يبقى الهيكل، بعد الموت، محتفظاً بتوازن أعضائه، فينقل إلى أخدود تاييس ليحف واقفاً. الهياكل، التي فقدت بعض قوائمها، أو تهشمت أعضاؤها بموت عنيف، يتم ترميمها بأعضاء منحوتة من حجر يلائم لون صاحبها.

كل شيء، في تاييس، نقش من رضا الموت عن نفسه.

خارج تخوم هايدراهوداهوس، غرباً، صعيد من الرمال المنبسطة تتصل نهايته بالمدخل الحجري إلى أخدود تاييس. عرض الأخدود أكثر من خمس وعشرين ذراعاً، بين جدارين من الحجر عاليين، ربما كانا، في وقت من عمو المياه، ضفتي نهر صاحب ترك أثراً في عزيف الريح

في الأخدود، الذي لا يعرفُ المجهولُ ذاته مَخرِجاً منه.

تدحرج الصدى الخافتُ لحدواتِ أنستوميس الفضةِ بين هياكل الموتى. ظلَّت عيناها على قطعة الحجر ذات الرسوم الغريبة، في يدها. كانت تمشي في الأخدود المتعرج بعيني قلبها، وذاكرة حوافرها. عبرتُ فرسخاً من الهياكل الجافة، المنتصبة على الجهتين. بلغت المقاطعة التي تجاوزت فيها مومياءاتُ فصيلها، واحدةً لصقَ الأخرى: كانت القرون الصغيرة، الصفراء، في الجباه، أكثر نقاءً من شعاعِ أصفر مُحْتَسِبٍ خلف غيمٍ شفيف.

توقفت أنستوميس عند جثة الهوداهوس دِيَجِيْتُو، آخر حاكم ليفلافيدي - مكتبة الصور في هايدراهوداهوس، قبل أن تتسلَّمها هي. رفعتُ قطعة الحجر المكسورة إلى وجهه: «أرأيتَ مخلوقاً أكثر قلقاً من هذا؟. تائه في البحث عن ذاكرةٍ لا يريدُها. قلقٌ بلا ذاكرة. كيف يقلقُ من لا ذاكرة له، أيها الهوداهوس ديجينو؟ حلمُه حلمٌ بلا نهاية، أهو يحلم حلماً بلانهاية؟ كلما نظرتُ إلى هيكله الواقف على ساقين فقط. أفقد توازني. لم يحدث لي ذلك وأنا أنظر إلى الطيور واقفةً على ساقين. له رأس مثلنا، وذراعان مثلنا، وصدر مثلنا، وبطن مثلنا، ثم كأنما قُطِعَ ذلك النصف الأماميُّ الشبيه بنا عن بقية الشكل الذي نحن عليه، وأضاف إليه النحاتون فخذين لا تشبهان أفخاذنا، وساقين لا تشبهان سيقاننا: مخلوق بلا حوافر، أيها الهوداهوس ديجينو. لكنني سأعطيه حافرتين، من خيالي، كي لا يتألم في تجواله بين كهوف هايدراهوداهوس. وسيكون، هو، شريكِي الذي أقاسمه حلماً واحداً».

مسحت قطعة الحجر براحة يدها تُزيل عنها غباراً لا مرئياً. هزَّت رأسها مستدركةً أنها - ربما - أخطأت التقدير: «أيستطيع أن يحلم نصف حلم، هذا الذي يحلم حلماً بلانهاية؟ أخلُمُه الذي بلا نهاية هو نصفٌ عليٌّ أن أممُه؟ لا. حلمٌ بلا نهاية هو حلم كاملٌ. سأتبعه؛ سأتابع شريكِي الرحالة في أرض ذاكته المفقودة. سأعود مخلوقاً مفقوداً يستعيد مخلوقاً مفقوداً. وسأسمي هذا الذي أعثر عليه، في تجوُّلي بين حدائق نسيانه، باسم أورسين».

أنستوميس لم تملك، قط، شريكاً تُتِمُّ له نصف حلمه، ويُتِمُّ لها نصف حلمها. انقرض فصيلُها من «حمى القرائن» قبل بلوغها العمر الذي تختارُ فيه شريكاً ويختارُها شريكٌ ليقاسمها، بخيار المؤلف، أجزاء الرسوم النافرة على لوح النوم، إذا أنجز النومُ لهما رسوماً. ظلَّت وحدها في دورة النصف الواحد من حلمِ نصفٍ لم يتغيَّر المشهدُ فيه قط: ترى نَفْسَها ماشيةً باتجاه مَخرِجِ أخدود تاييس؛ ماشيةً بلا جدوى في العثور على مخرجه، فتكاد تختنق، فتفريق. كلما حلمتُ أنستوميس كان ذلك هو نصف حلمها، متكرراً كسقوط قطرة ماءٍ من سقف كهف، برهةً بعد أخرى، عبر الزمن المتجانس والمتنافر كلُّه، على صخرةٍ ملساء.

قررتُ أنستوميس ألا تنام: طحنتُ بزره من بزور الطبايع في جُرْنِ جسدها، كي لا تنمو البزرة إن سقطت في رطوبة الحقائق.

أنستوميس لم تعد تبارح كهف فيفلافيدي، في الليل. تحمل فانوسها القوي وتدور، بأمومةٍ بصرها وخيالها، على الرسوم النافرة والغائرة. تستجليها، وتلاطفها؛ تُطْلِقُها من

أعشاشها الحجرية بيدي قلبها - قلب الفريد الأخير - إلى سماء الكهف المتماوجة، الذهبية من انعكاس ثمانمائة شمس صغيرة تدور حول الأعمدة الثمانمائة الخضراء. لكنّ النعاس القيّاف في برّيّة جسدها تصيّدُها، مراراً. توسّلتُ إليه أن يطلق سراحها: «أيها النعاسُ المُعتَصِرُ من العنقود الأول المتدلّي من دالية الإله - اللون، امْتَلِكْنِي بنسيانك»، فلم ينسها النعاسُ القيّافُ. حاصَرها، يوماً بعد آخر. قذِفَ سُوْرَ أعماقها بمنجنيق الحَدَرِ حتى كادت أنستوميس تنهار: «أيها التُّعاسُ المُعتَصِرُ من عنقود التعب الأول، المتدلّي من دالية الإله اللون، حرّزني بنسيانك»، قالت، فلم ينسها النعاسُ القيّاف. صعد الإعياءُ، ببرائنه القوية، إلى خيالها. تشرّدتِ الصُّورُ، واختلطتِ الإشاراتُ. أطلقتُ أنستوميس آخر ضراعاتها: «لا تَمْتَلِكْنِي، أيها النعاسُ؛ لا تُحرّزني. أبْقِنِي في الفراغ النازف بيني وبينك، يا ابن الوجود اللّقيط».

تقدّمت، متمائلةً من الإعياء، إلى العمود الذي تحفظ في جوفه خزانة الحايبة شظايا اللوح المُهَشَّم. رصفتُ بعضَ القطع على أرض الكهف. رفعتُ فانوسها المتضرّع مثلها، عالياً، بيدها المتعبّة: «كُنْ شريكِي أَكُنْ ذَاكَرَتِكَ، أيها الجوّال بلا ذاكرة. أبْقِنِي يقظي». ارتجفتُ يدها لا من تعبٍ، بل - تُقسِمُ أنستوميس بالإله اللون - من نبضة سرت من الحجر إلى راحتها. أجفّلتُ أنستوميس: امتلكتها اليقظة الكلية، فلم يتمكّن النعاسُ من استردادها، بعد ذلك. صارت أنستوميس في حالٍ من يقظةٍ نائمةٍ نومٍ يقظانٍ، ذاهبةً بذاكرتها إلى نسيان أورسين، عائدة بنسيان أورسين إلى ذاكرتها.

كان أكثر رواد كهف فيفلافيدي من ساكني كهوف الهضبات الشمالية. يأتون بألواحٍ أجْرُ ينقلون إليها الصور والنقوش بأقلام حديد. هادئون. يتخاطبون همساً بين الأعمدة، التي انتشر بعض المرمّين قرب رؤوسها العالية، واقفين على سقالات مرفوعة بالحبال إلى سقف الكهف. أنستوميس دأبت على استعراضهم، ببصرها - بصر المتأمل النهم. يأتون ويذهبون بعد ساعات، إلاّ تلك الأنثى السوداء اللون، ذات الجديلة الشقراء الملتقّة حول رأسها كطوق ذهبي سميك: تُحمحمُ حمحماتٍ خفيضة، وهي تنقل الصور إلى لوحها الأجرّي كأنما تعاتب الصور، أو توبّخها. لم تقترب منها أنستوميس أياماً، حتى وثقت من أن تلك الأنثى اختارت أن تتردّد على فيفلافيدي كل يوم، من الظهر إلى أول المغيب. دارت حول الأعمدة دورات تقلّصت فيها المسافة بينها وبين الأنثى السوداء. أومأت إلى تابعها سيئو أن يبقى على مبعدةٍ فابتعد. وقفتُ إلى جوار زائرة فيفلافيدي: «تستنسخين رسوم كائنات البحر، التي لها حوافر الهوداهوس»، قالت، فتطلعت إليها الأنثى السوداء بعينيها الخضراوين، الناطقتين بلسان مياه المضائق المغلقة: «أستنسخُ الخصومة بين البرِّ والبحر. انظري»، قالت، وهي تشير إلى حوافر الكائنات الناتئة في الحجر: «هذا التنافرُ يعدّب هذه الكائنات».

ربما أراد نحائّها أن يقيم صلحاً، في خياله، بين البرِّ والبحر. أعطى كائناته هذه زعانف الإقامة في الماء، وحوافر الإقامة فوق التراب»، قالت أنستوميس في نبرةٍ تكتنفها المُجاملة الرقيقة.

بركات: كهوف هايدزاهود/هوس
«لا زعانف لزوجي، وهو مقيم في الماء»، قالت الأنثى السوداء. لم تفهم أنستوميس.
نظرت إليها في حنوٍ ينتظرُ توضيحاً. حممت الأنثى السوداء: «زوجي بخار. تزوجني وتزوج
البحرَ معاً. سأستنسخ هذه الرسوم، هنا، وأعيدُ فصلَ أعضائها. سأنزع زعانف زوجي وحوافره
معاً»، قالت محتدمة، فضحكت أنستوميس: «ستضطرين إلى حملة، أيتها الهوداهوس..».
«اسمي ديديس»، قالت الأنثى السوداء.
«وأنا..»، قالت أنستوميس، فقاطعتها ديديس: «الهوداهوس أنستوميس، حاكمة
فيفلافيدي».

ارتفع سهيل سينو. التفتت أنستوميس إليه. كان تابعها نصف مذعور. هرولت إليه
حاكمة فيفلافيدي: «ما بك؟». فرد سينو: «كادت تلك السقالة تنهار»، مشيراً ببصره إلى
قمة عمود التصق به أحد المرممين، فوق سقالة مائلة. الحبل الذي يدور حول بكرتين ضخمتين
أفلت قليلاً من أيدي بعض العمال. كل خمسة منهم يشدون الحبل، عادةً، من جهة، يقابلهم
خمسة آخرون من الجهة الأخرى للبكرتين. عشرة أقوياء يؤدون، دائماً، مهمة رقع واحد من
الهوداهوس المرممين، على سقالة عريضة من الخشب الصلب، إلى الأعلى.
أعيد التوازن إلى السقالة المائلة. ربت أنستوميس على كتف سينو، وعادت إلى الأنثى
السوداء: «ألك أولاد، أيتها الهوداهوس ديديس؟».

«طفلان ذكران»، ردت ديديس. «هما في رعاية أختي الصغرى التي تسكن معنا في
مسكن داخل الكهف الثالث، في هضبة مأنُون».
«أراك تترددين على فيفلافيدي، أيتها الهوداهوس ديديس. أحقا تحاولين نزع زعانف
زوجك وحوافره؟». ضحكت.

«إنني أمزح، أيتها الهوداهوس أنستوميس. لا زوج لي. لا أطفال»، قالت ديديس، وهي
تلمس، في رقة، كتف حاكمة فيفلافيدي: «لقد تزوجت نقوش هذا الكهف».
نقلت أنستوميس بصرها من عيني ديديس إلى يد ديديس. لم تنطق. استرسلت الأنثى
السوداء في مَرَحها الغامض: «أتزوجيني، أنت أيضاً، أيتها الهوداهوس أنستوميس؟».
سهلت سهيلاً خافتاً: «أنا، وأنت، وهذا الكهف، والأعمدة، والرسوم، في دورة خيال واحد.
يمكننا أن نحلم بلا نهاية».

هزت أنستوميس جداولها الكثيرة في فضولٍ عارمٍ سعد من قلبها إلى عينيها: «من أنت
أيتها الهوداهوس ديديس؟»، قالت. فأبدت الأنثى السوداء استغراباً مَرَحاً. هزت ذيلها الأشقر
فتموجت عباؤها الصفراء الطويلة فوق رذفيها القويين: «أنا شريكك ديديس».
لم تنطق أنستوميس. سعد سكونٌ ثقيل بينهما غطى على صوت صرير البكرات الخشبية،
ولهاث الهوداهوس العمال. استدركت ديديس أنها تبالغ قليلاً في محاوراتها: «كلهم يقولون
لي إنني أتمادى في مزاجي أحياناً، أيتها الهوداهوس أنستوميس. اعتذُر. أظن القلق هو
وسيط الحقة إلى خيال لساني».

«مِمَّ أَنْتِ قَلِقَةٌ، أَيَّتِهَا الْهُودَاهُوسُ دِيدِيسُ؟»، ساءلتها أنستوميس، فردتِ الأثنى السوداء: «مني».

«عَدَّتِي قَلِقَكَ، إِذَا، بِكُلِّ مَا تَسْتَطِيعِينَ. أَتُخِمِيهِ»، قالتِ أنستوميس.
«إلى متى؟»، ساءلتها ديديس، فردتِ حاكمة فيفلافيدي هامسة: «إلى أن يكتمل».
«ثم ماذا؟»، ساءلتها ديديس، فردتِ أنستوميس: «ابدأئي بتغذية قلتي جديد حتى ينفجر من التُّخمة».

دارت ديديس من حول أنستوميس تتأملها بعينين تسكبان الرغبة في قدح الرغبة. تنفست بقوة كأنما تتشمم اللون الذي يتسلق سلالم قلبها - قلب أنستوميس بطبقاته الست. صهلت صهيلاً خافتاً: «لم أتزوج. لن أتزوج. لن أقاسم أحداً نصف حلمي. لكنني مترددة الآن»، قالت مبتسمة ابتساماً عليها نقوش المرح النافرة. هزت أنستوميس إصبعها مهددة تهديداً رقيقاً: «أيتها الهوداهوس ديديس، أنتِ تقتحميني»، ودارت هي من حول ديديس: «لا ذاكرة لك»، تمتت، فهزت ديديس ذيلها الذهبي: «لي ذاكرة ملأى بما رأيتُ وما لم أرَ، أيتها الهوداهوس أنستوميس. أستطيع أن أسترجع أرض هايداهوداهوس قبل ولادة كهوفها. أنا وأنت، كنا...»، فقاطعتها أنستوميس: «أنتِ تؤكدين لي أنك بلا ذاكرة. تعالي. سأقودك إلى شريك بلا ذاكرة».

«ليكن. ما لون حوافر شريكي هذا؟»، تمتت ديديس ضاحكة، فلم ترد أنستوميس.
أخرجت حاكمة فيفلافيدي من كيسها الخشن قطعة من اللوح الحجر المكسور. «اجلسي على هذه الطنفسة»، قالت. جلستا معاً في فسحة بين الأعمدة. تناولت ديديس قطعة الحجر. حاصرت الصورة النافرة بعينين وديعتين. حطت حمامة زرقاء على قرن أنستوميس: «أنتِ تدغدغيني»، تمتت، وطوقت الحمامة براحتي يديها.

«رسامو هايدراهوداهوس لم يعودوا حريصين على الصور. باتوا يرسلونها مربوطة على أرجل الحمام، وأنا أحملها إلى النحاتين». فتحت ورقة منسوجة من ليف عرائيس الذرة. نظرت إلى الرسم، وهي تقذف الحمامة عالياً بإحدى يديها كي تعود إلى قفصها - قفص الحمام المرسل. عادت تحدق إلى ديديس: «ماذا ترين؟».

«أرى مخلوقاً ذا نصف يشبهنا. لا. نصفه الأعلى يشبهنا. إنه جزءان مركبان، لكنه يبقى نصفاً أنشقت عن باقي هيكل الهوداهوس».

«أهو نصف، حقاً؟». ساءلتها أنستوميس. فتقرت ديديس الصورة بأناملها ذات الأظافر الرمادية: «يبدو نصفاً، وليس نصفاً. إنه نصف كامل»، قالت. فوافقتها أنستوميس بحممة رخيمة: «هو نصف كامل. يقودك - بلا ذاكرة - إلى حلم كامل يخصك وحدك»، ولمست جبين ديديس برأس قرنها، فتنفست ديديس هواءً ليس كهواء هايدراهوداهوس.

من الظهر حتى أوائل العصر المصبوغ بغيمٍ خفيفٍ، منحوت على عجل، حوم أورسين، كسرمانٍ حول خيال ديديس. سرمانٌ كلماتٌ من فم أنستوميس عن ترف الوحدة في حلم بلا

نهاية لأنه حُلْمٌ كامل؛ حلمٌ سرٌّ يعثر الهوداهوس فيه، بتكرارٍ لا نهائي، على ذاته التي لا تشبه نَفْسِها في كل مرة يعثر عليها؛ عن أورسين والممرات؛ عن المفقود الذي تستعيده ذاكرةٌ مفقودة: «تذكُري أورسين، لكن لا تذكُريه»، قالت أنستوميس. لمستُ جين ديديس، ثانيةً، برأسِ قرنها، وداعتُ بأناملها الدرْعَ المصنوعَ من زعانفِ أحصنة البحر، الذي يغطي صدرها: «ما اسمُه؟»، فردَّتْ ديديس: «نسيْتُ». تراجعتُ أنستوميس راضيةً.

ديديس ستحمل معها قطعةَ حجرٍ عليها صورُهُ أورسين. ستقوُدُ أورسين الفاقدَ الذاكرةَ إلى الممراتِ الخفية في ذاكراتٍ من تختارهم من أهل الكهوف الشمالية. وستكرر عليهم كلمة أنستوميس ذاتها: «ما اسمه»، وسيجيبون: «لا نعرف. لقد نسينا». إلا الهوداهوس كيْكُوْتُو، قارع الطبل في كهف الطواحين؛ الطبل المحرَّض على بقاء دورة الهوداهوس العمال متسارعةً وهم يدورون بأحجار الرحي الضخمة فوق حبوب الدُّخْن، والدُّرَّة، والقمح. سيثرثر في إحدى ساعات القيلولة عن حلم كامل لا يتشارك فيه اثنان. ستتدرج كلماتُه الحجرية على الألسنة الصَّفِيح في أفواه الثرثارين. سيلتقطها كيدرومي. سيسنتطقُ الكاهنُ قارع الطبل، وسيقطع أكسيانوس حنجرته بخنجره ذي المقبض النحاس.

قبل ذلك، أي في اللحظة التي تراجعت أنستوميس بقرنها عن جين ديديس راضيةً، هرول إليها تابعها سينو الأسود الجلد، ذو الشَّعر الحليق، إلا بقية كَعْرِفِ الديك في منتصف جمجمته: «الأميرة أنيكساميدا هنا، أيتها الهوداهوس أنستوميس».

نهضت أنستوميس معذرةً: «أراك غداً»، قالت. نهضت ديديس بدورها. دارت من حول أنستوميس دورةً واحدةً، وأرسلت إليها قبلةً لا تخفى، ثم انصرفت.

«أرى الزائرين يكثرون في كهف فيفلافيذي، أيتها الهوداهوس أنستوميس»، قالت الأميرة، وقد انفصلت عن الإناث الأربع - حارساتها ذوات الأقنعة النصفية، والخناجر الزرقاء المقابض. «الرسوم، الصور، حينُ خيالنا إلى ما كُنَّا في وجودنا الأول كنعوش على لوح اللون»، قالت الأميرةُ البلقاء، واسترسلت: «لك مملكة، هنا، في كهف فيفلافيذي ستستولي على أرض هايدراهوداهوس وسمائها. أم أنها استولت عليهما؟». حمحمت. وضعت يدها على كتف أنستوميس: «ألا تفكرين في شريك؟ أتحين؟».

فوجئتُ أنستوميس. حمحمت: «لي شريك هنا»، ووضعت إصبعها على صدغها. «ولي شريك آخر، هنا»، مشيرةً إلى قلبها.

«اثنان!!!»، تمتت الأميرة في إعجاب. «أنت محظوظة». حرَّكت يدها أمام صدرها: «أنت عاشقة، حقاً. متى تأتين بهما لزيارتي، أيتها الهوداهوس أنستوميس؟»، فردت حاكمهُ فيفلافيذي: «ها أنت، أيتها الهوداهوس الأميرة، في زيارتنا، نحن الثلاثة معاً».

استلطفت الأميرةُ توريات أنستوميس. مشت قليلاً تستعرض بعض الرسوم على جدار الكهف: «منذ متى أنت عاشقة، أيتها الهوداهوس أنستوميس؟». «منذ أن عرفتُ أنني عاشقة»، ردت أنستوميس.

«أتعنين: منذ أن التقيتكما؟. يبدو الأمر ظريفاً أن أوافقك أنهما اثنان. أهما اثنان، حقاً؟»، ساءلتها الأميرة بلسان الشك الخفيف، فردت أنستوميس: «لم ألتق بهما بعد، أيتها الهوداهوس الأميرة. لكنني أحبهما. نعرف من نحب قبل التقاتنا به. إنه صورة ما ينبغي أن يكون صورة حينا في ذاكرتنا الأولى المهجورة. هو مشرّد، ونحن نستعيده. ندله ثانية على ذاكرة أخرى أعدنا ابتكارها. نحبه من جديد. نستمر في تشريده مرة، وضمه مرة: شريداً، ومُكْتَنَفٌ، معاً، بين ذاكرة مفقودة تفقده، وذاكرة مُستعادة تستعيده».

«أهكذا تحبين، أيتها الهوداهوس أنستوميس؟»، ساءلتها الأميرة في فضول وانجذاب، فردت أنستوميس: «أليس هكذا تحبين، أنت أيضاً، أيتها الهوداهوس الأميرة؟». «أتسمحين لي أن المس قرئك، أيتها الهوداهوس أنستوميس؟»، ساءلتها الأميرة، فاقتربت منها حاكمة فيفلافيدي. وضعت الأميرة سبابة يدها اليسرى على نصل القرن الأصفر. أغمضت عينيها.

تبادلت الرسوم النافرة، والغائرة، على جدار الكهف، أزاملها الخفية. نقشت على حجر خيالها الدفين صورة أنستوميس وأنيكساميدا.

رعدٌ في الكهف الأعظم

مرّر ثيوني ريشة المكحلة على عينيه بنفسه. طلب من زوجته أن تصرف المزينتين الأخنتين سافينوس وروسينا، إذا حضرتا في الصباح الباكر، فصرفتهما أنيكساميدا: «الأمير منشغل هذا اليوم بمخاطبة البلورة السوداء»، قال.

خلع ثيوني حدواته الذهبية، بالملقط الحديد، مستعيناً بزوجته، وارتدى حدوات من معدن الرصاص. لبس عباءة رمادية، كالبرئس، ذات قبعة. أدخل ذراعيه في طوق الحزام، الذي يتدلى منه خنجران حديديان عاديان، فاستقرّا تحت إبطيه: «كيف أبدو، أيتها الهوداهوس الأميرة؟»، ساءل زوجته. فهزت الأنثى رأسها غير موافقة: «ما الذي ستعود به من أهل هايدراهوداهوس؟. فكرتُك مضطربة، أيها الهوداهوس الأمير. فكرتُك لن تقودك إلى شيء»، قالت.

تأمّلتها ثيوني، الذي بدا كراعٍ للإوز على ضفتي نهر سيتام المكسوتين برمّل أصفر. «أن أعود بلا شيء، أمرٌ مسلّ. تأكدي أن لا أحد يتبعني. سأخرج من الممر بين الأفران إلى باب كهف المؤنة، معتمراً قبعة عباءتي. أشغلي الطهارة، ومروبات العجين في المعاجن». قرعت حدواته الرصاص أرض الكهف قرعاً مكتوماً، ليئناً.

منذ أن استنفذ ثيوني أحلام خُلصائه، وأعيان إدارة الكهف الأعظم، أمر بجلب أناس من العامّة، كلّ اثنين من يتشاركان في حلم واحد، إلى إفطاره يُصغي إليهما يسردان ما التقط النومُ لخياليهما من طبائع الصور، وعناصر الوقائع. في الصباحات التسعة عشر الأولى تزلزل قلب ثيوني: لم يُبح أحد بحلمه. وقف الذين أتى بهم رُسُلُه قرب خوانه صامتين. «الحلم سرٌّ من

أسرار اللون. لن نهينَ اللونَ»، قالوا.

تسعة عشر صباحاً قُطعتْ أذيالُ بين تماثيل الحدائق الحجرية. حوِّمتْ ذُباباتُ العار البُلورية فوق الجروح، التي لا تندمل إلاً بالموت: انتحر مقطوعو الأذيال بخناجرهم، بعد إطلاق صهيلٍ موحش. في أحد الكهوف، المشمولة بأنفاس سهول الدُّرة، اجتمع محاربون كهولٌ، باتِّفاقٍ مُعلن، مع أعيانٍ محظوظين يترف المكاشفات: «قلنوسطُ العقلُ في امتحان العقل». اختاروا رسولاً إلى الكاهن كيدرومي: «فليمهلنا الأميرُ أياماً نحلُّ فيها المعضلة».

بعث إليهم كيدرومي - بعد نشيدٍ عاصفٍ للريح مغسولٍ برائحة الفهود التسعة، المقيدين بسلاسل بين أيدي تيتونا وأخيه ريسمو - كلمة التفويض: «خذوا وقتكم. وليكن قصيراً». لكن الريح، التي كاشفت السهولَ ببعضٍ من تدابيرها، نثرت سمسَم النار على أرغفة المعضلة: انقسم الحكماء على أنفسهم. أوجب البعض أن يتمرد من يريد، فلا ييوح بحلمه. وارتأى البعض أن ييوحوا: «لا نريد أذيالاً أخرى مقطوعة. إن يغفر اللونُ الإله للريح يغفر لنا أيضاً». تغاضى المتشدِّدون: «سنرى إلى أين يمضي الأمر».

عادت الريحُ إلى أرغفة المعضلة تنشر عليها سمسَم الهلع: كان الحكماء كلِّما أحضروا اثنين لإرسالهما إلى الكهف الأعظم، وجدوهما لم يحلما. استعرضوا مئات فوجدوهم لم يحلموا. حثوهم أن يتَّقوا مغمضينَ أعينهم في النهار وفي الليل، علَّ شرارةً من شرارات الرحمة تشعل في قش الصور المهجورة نارَ اللون فتعود الصورُ مسكونةً. ارتعد الحكماء: هم، أنفسهم، أدركوا أنهم لا يحلمون أيضاً.

نقد صبرُ كيدرومي: «مضغ الأمير قلبه مع زهر القرع المخلل. لا قلب له الآن. سيمضغ قلوبكم». أرسل إليهم الوعيد مدوناً بالصور على عود مربوط إلى ساق حمامةٍ قطعت سهل الدُّخن الشاسع بين كهفه وكهف المحارب الكهل نيسيانو، الذي جمع لوعة خياله في راحتي يديه كما، ومضى إلى كهف فيفلافيذي: «انظري، أيتها الهوداهوس أنستوميس، إلى الماء الذي في راحتي».

لم تر أنستوميس ماءً في يديه، لكنها تظاهرت بالنظر إلى ماء التورية كي تُرضي الكهل المحارب، المحترف الرزين. «ماذا ترين؟»، ساء لها، فردت: «أرى خيالك، أيها الهوداهوس نيسيانو».

«نعم»، ردَّ نيسيانو: «وحدها، هذه الرسومُ على جدران كهفك، ستظلُّ مسترسلةً في أحلامها. هي وحدها من يملك حملاً، اليوم، في هايدراهوداهوس، أيتها الهوداهوس أنستوميس»، قال بلسان محترق.

ارتعشت ريشةً الجناح الثالث في قلب أنستوميس: «ما الذي يجري، أيها الهوداهوس نيسيانو؟».

«ما من أحد يحلم، والأميرُ منتظرٌ ما يهبُّه اللونُ من الصور لأعماق عامته في نومهم».

أديك، في علوم هذه الجدران الجليلة، ما نجد به مخرجاً؟»، ساء لها نيسيانو منهوباً. حوّلت أنستوميس بصّرها عنه إلى مرّمي الأعمدة فوق السّقالات العالية. وضعت يدها على قرنها. نطقت بعد برهاتٍ من الصمت: «لديّ شيءٌ ما، في علوم الجدار الذي هنا»، وأشارت إلى جبينها: «جدار النقوش الأخرى، أيها الهوداهوس نيسيانو». التمعتُ عيننا نيسيانو، ذي الجلد المائل إلى الصفرة. انفرجتُ أساريّره: «أرئيني نقشَ خيالك، أيتها الهوداهوس أنستوميس».

«لَقِّقُوا أحلاماً، وخذوها إلى إفطار الأمير كزبدة حليب الجاموس»، قالت حاكمة فيفلافيذي. سهل نيسيانو سهيل المبهوت: «أيُّ خيالٍ أعمى خيالنا؟ كيف سهّونا عن هذا؟». حمل نيسيانو زبدة الخیار السهّل إلى إفطار الحكماء، في كهف ما بعد سهّل الدُخْن الشاسع. تنقّسوا الهواء برئاتٍ جديدة: «لكل اثنين مهلة الليل كلّه كي يلققا حلماً يُبهِجُ صباح الأمير. هيؤوا: أروا الأمير بلّورات اللون المحفوظة في خزائن وجود الهوداهوس»، قالوا. كل صباح دأب ثيوني على الإصغاء إلى اثنين من عامّة الهوداهوس يحرثان له، بلساني حلمهما الواحد، سطوراً في حقل إفطاره. ابتهج أحياناً من طرائف السرد، ومن طرائف المفارقات. اكتأب أحياناً من بؤس الرؤى. تأمل أحياناً في الإشارات المُلغِزة للوقائع. غضب أحياناً من صفاقة المعاني. قهقهه أحياناً من طيش الوقائع حتى سال خلُّ الدراق الفجّ من زاويتي فمه على لحيته. أوقف البعض عن إكمال السرد احتقاراً لمطالع الحلم.

كل شيء بدا على ما يرام، حتى اليوم الذي دخل فيه كاتسياس، وسنكو التوأمان اليتيمان، على الأمير. كان شعرهما الأحمر الطويل يصل إلى ظهريهما، وعلى وجهيهما أصباغ صفراء. انتظر الأمير أن يتكلّما فبقيا صامتين: «ما بكما؟»، قال أكسيانوس. تلمل التوأمان. تبادلوا نظراتٍ معذّبة. «ابداً»، قال كاتسياس يحثُّ أخاه، فرد سنكو: «ابداً أنت». ثم نطقا، في البرهة ذاتها، بلسان واحد: «نحن لم نعد نحلم، أيها الهوداهوس الأمير. ما جاء به الآخرون إليك، من أحلام، هو تلفيقٌ اضطرُّوا إليه».

ألقي الصمتُ شبكته على المجلس، فتصيّدَ الجالسين جميعاً. نهض أكسيانوس، أخو الأمير، مضطرباً، فأثار من حوله ذبابات الغضب الخفيّة: «مَنْ لَقِّقَ الأحلام للعامة في هايدراهوداهوس، أيها البائسان؟».

«لا أحد. هم قادرون على تلفيقها»، ردّ التوأمان.

نهض كيدرومي مستغرباً: «مَنْ درّبهم؟»، سأل، فهزّ التوأمان رأسيهما ثقيلاً: «لا أحد». احتدم الكاهن. انفلت شاربا الطويلان المربوطان بنهايتيهما إلى أذنيه. تدلياً كأفعيثن من جانبي وجهه: «أتعرفان ما ينتظركما؟ ذبلاًكما للذنان سيّقطعان. أنتما تخفيان أمراً»، قال، فنهض الأمير على مهلٍ. حَمَحَم بصوتٍ فيه نبرة الغامض. تكلم: «لا. لن يُقَطَّع ذيلُ أحد. إذهباً»، قال للتوأمان. فتراجع التوأمان، وخرجا من كهف الإفطار يقودهما دليلٌ.

دار ثيوني حول الحوان المديد، الطافح بخضارٍ نديّةٍ بلّلهما فجرٌ هايد اهوداهوس: «أسمعتم

ما قاله هذان؟. العامَّةُ باتوا يستحضرون الإلهَ اللون حين يشاءون. لم يعودوا في حاجة إلى انتظار اللون أن يشرق على منامهم ليبتكر لهم أحلامهم من سديم اللأصُور. لقد فتحو ثغرةً في البوابة التي هناك»، وأشار بيده إلى سقف الكهف بلا تعيين.

في المساء، كاشفَ ثيوني زوجته أنيكساميدا برغبته في التجول وحيداً بين كهوف هايدراهوداهوس: «سأخرج، ظَهَرَ الغد، متنكراً»، قال. دار من حولها وهي تعيد توزيع المرايا، ذات الأطر الحجرية، فوق الحافات البارزة من جدران كهف الحلي والآنية الذهب. «أتظنين، أيتها الهوداهوس الأميرة، أن حُلصائي، وأعيان إدارة الكهف الأعظم، كانوا يلقون أحلامهم التي سردها علي؟ إن كان الأمر كذلك، فالأرجح أنني، وأنتِ وحدنا، مَنْ سرّدا نصفيّ حلمهما، علانيةً، في أرض هايدراهوداهوس».

سقطت امرأةً من يدي أنيكساميدا. تناثرت الشظايا. حمحمت في غضب. اقترب منها ثيوني. طوّق كتفيها بذراعه في وقوفه إلى جوارها. «انظري: عدّة أميراتٍ، وعدّة أمراء في الشظايا»، قال، وهو يتأمل صورتيهما موزعةً في المرآة المهشمة. حمحَم حمحةً فيها نبره امتنان: «أقسم بالمرآة، أنني أشم رائحة ترمُد في هايدراهوداهوس».

غمر دويُّ الرعد مداخل الكهف الأعظم. دخلت حمامة من كوةٍ عالية في السقف. حومت قليلاً، ثم خرجت من الكوة ذاتها.

آزينون

دارت جدران الكهف الأعظم، كطيورٍ دائخةٍ، في عيني أنيكساميدا. شقّرة من ملح سلخت غشاء كبدها: «أين الأمير؟»، قالت بصوتٍ متناثرٍ في حنجرتها المسدودة من الهلع.

كيدرومي، كاهن الطواحين، وأكسيانوس، أخو الأمير، حملا إليها جمرة النبا الطاحن: «عشرنا على جثة تيتونا قرب بحيرة سايدين. لا أثرٌ للأمير». كان ذلك ظهيرة اليوم الثالث من خروج ثيوني متنكراً ليجول بين كهوف هايدراهوداهوس. أوهمت الأميرة حُلصاء الأمير، وأعيان إدارة الكهف الأعظم أنه احتجب من وعكة عارضةٍ ومزاجٍ معتكر. كما أوهم بناتها أن أباهن في خلوة من خلواته المعهودة في مرصده، المنبثق عالياً بحجره الأصفر، فوق كهف الطواحين، يستعرض، من هناك، سطور السهول مدوّنةً بأنفاس اللون على مرايا الأفق ومرايا السماء. لكن خبر مقتل تيتونا مذبحاً صعق خيال أنيكساميدا، وزلزل عظامها. «أرسلا حرساً إلى جميع الجهات. احترنا بحوافر جنودنا تراب هايدراهوداهوس، وغيوم هايدراهوداهوس. اعثرا عليه»، قالت منتحبةً بصوت خافت.

«الأمرُ السديد، أيتها الهوداهوس الأميرة، أن نتكتّم على اختفاء الأمير حتى يكتمل لعقولنا ما ينبغي أن نفعل. أنا وأكسيانو سنقلب الأرض عاليها سافلها، وحدنا»، قال كيدرومي. سهل حين عبّرت قلبه سحابة من صور الحيلة. اهترّ شارباه: «سأجد محرّجاً مؤقتاً، أيتها الهوداهوس الأميرة. مسّني وحي اللون». تلقت باحثاً بعينيه عمّن يُنجدّه: «من سيأتيني

بالفلكيِّ ميدراس..».

في رُكنٍ من الحداثقِ الحجرية، قرب قنثال الثور ذي الرأسِ السمكة، التقى كيدرومي، وأكسيانو، بالفلكيِّ الشاعر ميدراس، الذي اصطحبه للقائهما اثنان من ذوي الأقتعة النصفية الصفراء - حُجَّابِ كهفِ الحَمَّامات. أوصلاهُ وانسجبا. تخاطبُ الثلاثةُ بالمُرادفاتِ المبنيةِ على هيئةِ الفلَك: الدَّوْرَة، والمراكز، والتتابع. تبادلوا تقديراتهم لأحوالِ الهواءِ وطبائعه الستَّة عشر، ثم سكتوا. انتظر ميدراس سقوطَ بذرةِ المعنى، الذي أَحْضَرَ من أَجْلِه، في ترابِ علمه. حمحم كيدرومي: «أخبرتني مرة أنك رأيتَ شاعراً يشبه الأمير، أيها الهوداهوس ميدراس. هلاً جلبتُهُ إلينا؟ نلتقيك، هنا، عصرًا».

تأمل ميدراس البذرة اللامثية في كلمات الكاهن المرتبة على نَسَقٍ كالغمام: «آزينون؟!»، تتم. «تريدان الشاعر آزينون؟. لا أعدُّكما أن آتي به عصرًا. أرجحُ المغيب. في المغيب أستطيع العثور عليه داخلَ حانةٍ من حانات كهوف الرمال».

في الركن ذاته من الحداثقِ الحجرية، تحت ضياء تسعة مشاعل في أيدي ذوي الأقتعة النصفية الصفراء، تلاقى كيدرومي، وأكسيانوس، وميدراس، وآزينون. بوغت الكاهنُ وأخو الأمير بالشبَّه المُحكَم بين ثيوني والشاعر. خلع أكسيانوس عباءته على عجل، وجعلها خماراً على رأس آزينون، فغطى ملامحه بالظلال. «أنا ممتنُّ لك، أيها الهوداهوس ميدراس. نراكُ غداً»، قال الكاهن، فأدرك الفلكيُّ الإشارة. تمنى لهم ليلاً مُعتصراً من عنقايد الإله اللون، وعافية اللون، ثم انصرف.

عبر المررُ اللولبي، المؤدي - من جهات الكهف الأعظم الخلفية - إلى بهو الأقران، دخل الثلاثة. لم تعرَّض الحرسُ المحيطون بالمُرصدين العالين، على جانبي المدخل، للغريب، إذ رأوه في صحبة الكاهن وأخي الأمير، اللذين قاداه، وسط الحركة الدووية للعاملين والعاملات، المختصين بشؤون الأتعمة، إلى كهف المؤونة ذي العقب اللانهائي. عبق التوابل، والأفاويه، والخلُّ المُدرَّب على مدح الدَّق، والطيور المُدخنة، والأجبان، والفاكهة المحققة، والأنفاس المحمومة للفرَّانين يستدرجون الإناث العجَّانات إلى دهاليز النبيذ الجانبية، حيثُ الفُرُوجُ تُعيد الصوابَ إلى الخُصَى، وتعيد الخُصَى الصوابَ إلى الفروج.

في تجويف معتمٍ قليلاً، خلف جدارٍ من عرانيس الدُّرة، جلس أكسيانوس وآزينون صامتين. غادر كيدرومي المكان. غاب وقتاً وعاد تتبعه أنيكساميدا وقد وضعت خماراً على رأسها. نهض الجالسان. اقتربت الأميرة من آزينون. مدت يدها وأزاحت خماره عن رأسه. ارتعد قلبُها مندهشاً. حمحمت بقوة: «أيه صورةٍ جمعتكُ بزرَّة بزرَّة من خزائن اللون لتبتكرِك شكلاً في مرآة ثيوني إذا نظر إلى نفسه؟ قل لي، أيها الهوداهوس الغريب، إنك لست الأمير»، قالت أنيكساميدا بصوت خيالها المرتعش من نفس الذهول. ضحك آزينون: «أسمعُ، في هذا الكهف، من يغني أغاني الموج، وأنا لا أحب الموج. كيف يكون أميراً من لا يحبُّ الموج، أيتها الهوداهوس...». ضرب أكسيانوس بحافره حافر آزينون: «إنها الأميرة».

التصق لسانُ آزينون بحلقه. تفتَّتَ خياله.

«ضَعْ خمارك على رأسك. اجْعَلْهُ منسدلاً على وجهك قَدْرَ ما تستطيع»، قالت أنيكساميدا للشاعر. غطتْ رأسها بخمارها: «فلنذهبْ إلى كهفِ المزيّتين سافينوس وروسينا». تقدمت خطواتٍ ثم توقّفتْ. استدارت إلى آزينون: «لا تتكلم إلى أحد. إبقِ صامتاً». مشت. توقّفت: «كُنْ عابساً قليلاً».

جاورها كيدرومي: «ماذا سنفعل بصوته؟»، ساء لها، فردّت: «ليقلْ لكلِّ من يسأله عن صوته إنه ضجّر من صوته، وها هو يتدرّب على صوتٍ جديد. بلّغهُ ذلك، أيها الهوداهوس الكاهن».

جمّع من زوجاتِ أعيان الكهفِ الأعظم كُنَّ ينتظرن دورهنَّ للوصول إلى مصاطب التزيين ذوات الأدرج الواسعة الخمسة. تصعد الواحدة سدة المصطبة وتجلس لتمتكن المزيّنة الواقعة، من إعادة ظلال الوجود المرقّهة إلى الوجه. ستُّ مصاطب كانت هناك. اثنتان لأداء المزيّتين الأختين، والأربع الأخرى للمساعدات. نهضت إناث الهوداهوس حين دخلت الأميرة. أوامتْ أنيكساميدا إلى روسينا، فأسرعتِ الأنتى الشديدة البياض إليها. تماوج درعُ الخنز على صدرها من وثبةِ الشديين.

«أهنالك رُكنٌ مستورٌ، أيتها الهوداهوس روسينا، يخفينا عن الأعين؟»، قالت الأميرة. «كهفُ الأصباغ، تحت هذا الكهف»، ردت روسينا. «نستطيع النزول إليه، عبر الدرجات التسع، في أوّل المنعطف المؤدي إلى بهو كهف التزيين، أيتها الهوداهوس الأميرة».

أنية زجاجٌ. أكياس صغيرة وكبيرة. صحون فخارٌ وأجرٌ، ملأى بالأصباغ، في كوى محفورة في جدران الكهف. أوراق أزهار جافة. عيدانٌ. أجرامٌ حجرٌ: كلُّها في سلال. أجرانٌ صغيرة. زيوتٌ في قوارير. روائحٌ تلمس ولا تُشمُّ. ألوانٌ تُشمُّ ولا تُلمس: ذلك كان حال كهف الأصباغ، الذي نزل إليه، عبر الأدرج التسعة، أنيكساميدا، وكيدرومي، وروسينا، وآزينون، وأكسيانوس. كهف ذو زوايا، وتجاويف قوسيّة، وأربعة أعمدة ثخينة الاستدارة، وكوتّين عميقتين تيرانه إنارةً خافتة. أشعلت روسينا، بشرارة القدّاح الحجر، فتيلَ السراج النحاسي الكبير. تشاجرتِ الظلال قليلاً، ثم تصالحتْ.

أزاحت أنيكساميدا، بيدها، الخمار عن رأس آزينون. تلعثمت روسينا من هبوب صورة ثيوني على عقلها. تمالكتْ نفسَها: «أحمدُ اللونِ على عافيتك، أيها الهوداهوس الأمير». اتسعت عينا آزينون من صوتها. ضاقتِ الحقائقُ في خياله. لم يتكلّم. تذكر أن يكون عابساً، فعبسَ.

«طالت لحيته قليلاً، أيتها الهوداهوس روسينا. أعيدتها إلى حدودها، وأكثرها من ظلال الأصباغ على صدغيه»، قالت أنيكساميدا.

هرعت روسينا إلى آلاتها وقواريرها. هزّت ذيلها بقوة تطردُ الأسئلة المُشاكسة التي علقت بجلدها الأبيض كبراغيث الكلب: لماذا حضر الأميرُ إلى كهف الزينة بنفسه؟ ثيابه ليست من

معلوم القماش في الكهف الأعظم. خنجره عاديان. لا صليل لحدواته. مَرَّحٌ مكتومٌ يترقق في عينيه بالرغم من عبوسه. رفرَفَ ثدياها تحت درع الخزر على صدرها حين استدارتْ عائدةً بما تحتاجه لتبرُّج الأمير.

خرج وجه آزينون من بين يدي روسينا مَسْكوباً في قالبٍ من وجه ثيوني. في رُكنٍ آخر من أرجاء الكهف الأعظم استعاد آزينون بقايا الظلال التي تتكوّن منها تفاصيل ثيوني: حدواته، وخنجره، وعباءته الصفراء، والسيور الذهب حول رأسه، والحركة المُتَقَنَّة لأنامل يده اليسرى، حين يوجِّها كفراشة إذا أراد المزيد من أيّ شيء. ولما حضر أوّل لقاءٍ مع بناته، سبقته محممة التأكيد القوي على أنه يتدرّب على صوتٍ آخر - صوت اللامكترب، الثرثار قليلاً، المتذبذب بين الرغبة ونقيضها. داعب رؤوسهنّ - حسبما أملت عليه الأميرة - فأسقطَ تيجانَ الريش عنها. سمع أسماءهنّ من فم أتيكساميدا وهي تتعمد أن تبعدهنّ عنه، واحدةً واحدةً: «احذرنّ سُعاله»، قالت. لكنهنّ استعرضنّ في عينيه، بأعينهنّ المتربّصة، طرائد الرغبة التي تخلو منها العراءاتُ الخفية في أعين الآباء. تجرّأْنَ فمَارَحَتْهُ أكثر مما فعلنّ من قبل. شددنّ ذيله، وتلمسنّ خنجره.

«الفوضى هي النظامُ الأصل». تلك كانت كلمات آزينون - ثيوني في مجلس الخُلصاء، وأعيان إدارة الكهف الأعظم. «الفوضى خلاص»، قال من سُدّة المصطبة التي يجلس عليها، في صدر الإيوان. أكسيانوس تعمد الجلوس إلى جواره. كلّمَا تحدّث مخلوقٌ من الهوداهوس إلى آزينون ذكرَ أكسيانوس اسمَ المتحدّث، ومرتبته، بصوت عالٍ. يُحيّيه، أو يسأله شيئاً ما، كي يتمكن آزينون من اختران الاسم في ماء خياله وما عينيه - ماء الصور. «كلّي، عميق، هو الفوضى. تنظيم الفوضى مساسٌ بقديسيّة الأصل، وإهانة لخصائص الموجودات».

لم يكن يهمُّ ما يُلقيه آزينون من كلماتٍ مُمرّغةٍ في عبثها الظاهر. عيناه كانت تهمّانَ الجالسَيْن. عينان شبكتان تتصيدان الوجوه كالشباك المموّهة يتصيد بها أهل الحقول طيور السُّماني. كيف عاد الأمير بتلكما العينين، بعد احتجاجه أياماً قليلة؟ هكذا، في الأرجح، تساءل خُلصاؤه، وأعيان إدارته، وهم يتخبّطون في شباكهما كالفراشات، كأنما يقتحم آزينون أعماقهم.

«المركزُ خطأ في التقدير. محيط الفراغ هو مركزُ نفسه. كلُّ محيطٍ كتلة متنافرة الأبعاد. لا توازنٌ إلا في الفوضى...»، كلمات لم تهمّ المحيطين بآزينون - ثيوني. وهو، نفسه، كان يُلقيه كأنه سمعها من أحد ما، مستدرجاً بها جُلساءه إلى حضورٍ فارغ. أمّا إذا نظر إلى أنستوميس فلا يستعرضُ معادنَ النظام، أو معادنَ الفوضى، في خيال لسانه. يدور بأنستوميس دورة الظلّ الحالم على الشكّل الحالم. يستنشقه من غصون البقاء المسحور: «كلُّ عظم، في جسدي، قلب. كل عضلة رئة. كلُّ عَصَبٍ نفس».

مُدُّ ناداها أكسيانوس بلبقها - لقب حاكمة فيفلافيدي، نقشت الرسوم الأزلية أسماء المعاني الحائرة على معدن العمام فيه. «كم مرة زرتُ فيفلافيدي؟»، سألتها، فردت: «أنت لا تزور

فيفلافيذي، أيها الهوداهوس الأمير». .

ضرب آزينون - ثيوني بيده على صدره: «سأتي بكهف فيفلافيذي إلى الكهف الأعظم، وسأحمل الكهف الأعظم إلى فيفلافيذي».

امتعض أكسيانوس. حمم الكاهن كيدرومي. رفرفت أنيكساميدا بمروحة يدها أمام وجهها، عائدة بخيالها إلى المساء الذي كاشفها الأمير برغبته في الخروج إلى ساحات هايدراهوداهوس وأسواقها، متنكراً. لم تحتمل الفكرة المعذبة. أرسلت الطاهي البدن كيرنو المخصي إلى كيدرومي: «سيخرج الأمير وحيداً، غداً. فليتبعضه من تثق به من أقوياء حرس الطواحين، ولا تدع الأمير يشعر بذلك».

ترصد تيتونا خروج الأمير من باب كهف المؤنة، مُحْتَجِباً خلف عربات الفاكهة، القادمة من حقول نهر ثومان الأزرق، وتتبعه بحوافر مكسوة بنعال من جلد الجاموس السميك، كعادة من لا يملكون حدوات. تتبعضه بخطى خرساء - حُطى الحذر من طيش الصخب، وطيش السكون.

خنجر ديديس

تهامس ستة من الهوداهوس غطوا رؤوسهم بقبعات عباءاتهم الشبيهة بالبرانس: «ها هو تيتونا يتبع أحداً ما». خرجوا بهدوء من خلف الأعمدة الكبيرة، المحيطة بالمر إلى الأسواق.

اثنان من الستة الهوداهوس كانا يجويان المعابر الخلفية إلى حدائق الحجر، حيث دأب تيتونا أن يسلك أحدها باتجاه الكهف الأعظم، فيما انتظر أربعة آخرون على مشارف حقول الذرة العالية. لم يظهر تيتونا. نثرت شمس الصباح ريشها على وسائد السماء - تلك الغيوم المنفوشة، كشعر منفوش، في أول يقظتها. استقر الريش على الوسائد، ولم يظهر تيتونا. عاد الاثنان باتجاه حقول الذرة، عبر طرق العربات التي يجرها أصحابها الهوداهوس بأنفسهم: هناك رأيا العملاق محدباً ظهره قليلاً، مغطى الرأس والكتفين بخمار من ودع النهر والحرز. كان يخفف مشيه أحياناً، ويُسرع أحياناً. يتوقف متظاهراً بكاملة بعض رعاة الإوز، أو يلتقط من الحجارة الصفراء، المخروطية، أصداًفاً بخنجره، يتزيّن بها صغار الهوداهوس.

عرفاه من شاريه المفرطين في طولهما؛ من منكيه العريضين. أطلقا صهلاً خافتاً، متواصلًا - صهيل التنبيه، فتحرك الأربعة الآخرون. مشوا متفرقين حتى المداخل المتشعبة، المحفوفة بالأعمدة، في مطلع ممرات أسواق هايدراهوداهوس. اجتمعوا خلف الأعمدة: «تيتونا يتبع مخلوقاً ما»، قالوا في همس.

دورات كثيرة قادت الستة من الساحات إلى الساحات. باتوا على يقين أكبر من أن تيتونا يترصّد مخلوقاً ذا مرتبة تختلف عن مراتب من يختارهم من أهل الكهف الشمالية. هو يأخذ من يريد إلى تحقيقات كيدرومي علانية. يأخذهم ويختفون. فلماذا، يقتفي أثر مخلوق يقدر أن يختطفه مع معاونيه؟ ولماذا هو وحده؟ تيتونا، في مطاردته المتأنية، غير المعلنة، لذلك المخلوق، لم يتصرف كتيتونا المعهود، الذي باتوا يتعقبونه في حركته بين الكهف الأعظم وكهف الطواحين

الشاسع الأرجاء. منذ ازداد اختفاء من يستدعيهم العملاق، من أهل الكهوف الشمالية، اتخذ بعض القلقين قراراً باقتفائه. مضى وقتٌ طويل قبل انكشاف الطلسم الدموي: الذين يختفون، في دخولهم كهف الطواحين، يخرجون من تجويف في الصخور الخلفية، الوعة الوحشية، مقتولين.

صهّل فريقٌ غاضبٌ من الهوداهوس صهيل المهنّين: «سنديح تيتونا».

خمسة من المدربين على حمل الأجران الحجرية أربعة فراسخ، وواحد رقيق الهيئة، توكلوا بتدبير مراقبة تيتونا. شحذوا خناجرهم على حجر الرمل، وشحذوا شفرات قلوبهم على حجر الثأر.

في ساحة نصف دائرية من السوق، ازدحمت بأقفاص الطيور، وبضجيج مطارق الحدادين، كتب الهواء سطرَ ندائه المتناثر على السنة الستة: «من سيضربه أولاً؟».

«أنا»، قال الهوداهوس الرقيق الهيئة، من تحت قبعة عباءته، بصوت منقوش زخارف على

الفراغ المطحون. لم ينتظر. استعجل في مشيه حتى جاوز تيتونا، ثم استدار بغتة بخنجر مسلول مرّت شفرته على حنجرة العملاق المنشغل العينين بمراقبة من يقتفي أثره. لم يضره الآخرون الخمسة: كان الشق، الذي تركه الخنجر الأول في حنجرة تيتونا، كافياً لأن يعرفوا، بلمح البصر، أن الهواء قد تخلّى، إلى الأبد، عن رثيئه. اختلطوا بأهل السوق، الذين انتبهوا إلى حركة العملاق دائراً حول نفسه، ممسكاً خلقه بيديه، وهو يُطلقُ شخيراً كقبيح الخنزير. اختلط الهلع بالفضول. تدرجت أقفاص الطيور، وانقلبت منصّات الباعة.

لم يهمد جسده تيتونا إلا بعدما قووض الساحة نصف الدائرية، وأسقط على نفسه الأقواس الحجرية في بهو الموت، الذي تنحّته الغيبوبة في الكتلة الهائلة، الصلبة للحقائق، بتفصيل مذهلة. تقدّم الستة إلى الغريب الذي كان يتبعه العملاق. هو نفسه لم ينتبه إلى ما حدث، لكنه التفت إلى صخب الجمع المتحلّق حول شيء لا يراه. أحاط الستة به. أمسك اثنان منهم بذراعيه وصهلا: «أسرع. أنت في خطر»، فاندفع معهم مشلول الخيال.

سلك السبعة الممرات الرملية خارج محيط الأسواق. تسلقوا التلّ الأصفر. ثم انحدروا إلى ضفة نهر سيتام. من هناك انعطفوا صوب دغل التوت الأحمر. لبسوا الظلال، ولبستهم الظلال.

تنقّسوا بعمق، في الفراغ المنعش بين الشجر. أزاح المخلوق الرقيق الهيئة الأقل عضلاً قبعته عن رأسه، فانتشر شعاع الشعر الأشقر المجدول حول الرأس كطوق - شعر ديديس. حامت حول الغريب: «أتعرف مخلوقاً يُدعى تيتونا؟»، قالت. تسلل هواءً بارد إلى قلب الغريب. بقي صامتاً.

«تيتونا. تابع الكاهن كيدرومي، أيها الهوداهوس الغريب. ألم تسمع به؟»، سألته ديديس. بقي الغريب صامتاً.

«كان يتبعك. أتعرف أنه كان يتبعك؟»، سألته، فردّ الغريب بصوت فيه نبرة الريبة الباردة: «لا».

«لا تعرف، إذاً، لماذا كان يتبعك تيتونا؟»، سألته، فهزّ رأسه: «لا. لا أعرف».

جلست ديديس على الأرض المكسوة بعشب خجول تحت شجر التوت الأحمر. جلس الآخرون. ظلّ الغريب واقفاً. حممت الأنثى ذات العينين الخضراوين: «اجلس، أو أهرب»، قالت بلسان المزاح. ضحك الآخرون.

بركات: كهوف هايدزاهود/هوس
« من يتبعه تيتونا يختف، أيها الهوداهوس الغريب. تيتونا ذراع الهاوية»، قال أحد الجالسين.
سهل الآخرون سهيلاً خافتاً.

« من أنت، أيها الهوداهوس الغريب؟»، سأله أحد الجالسين، فردَّ الغريب مستعرضاً بعينه
الأجساد القوية للمدريين على حمل الأجران الحجرية: «أنا راعي الإوز من كهوف التلال البيضاء،
خلف سهول القمح الشرقية»، قال. ضحكت ديديس: «كان تيتونا سيسرق منك إوزك، في الأرجح». ضحك الجالسون.

«أنت ممن يتسترون على حلم كامل؟»، سألته ديديس.

ارتبك لسان عقل الغريب: «حلم كامل!».

«لا يهم، أيها الهوداهوس الغريب. لم تقل اسمك، أيضاً. لا يهم. من يتبعه تيتونا ليس إلا
حامل سرٍّ يخصه هو. سرُّك لك. أين تقيم؟»، سألته ديديس.

«حضرت اليوم. سأبحث عن خان»، رد الغريب.

«لماذا الخان؟. فليأخذك الهوداهوس كيتوس إلى مسكنه. يحب المرح، والصخب، والأعراس.
ستكون محظوظاً في صحبتته»، قال أحد الجالسين، فردَّ جالساً آخر: «أنا كينوس. هؤلاء لا
يتحدثون إلا عن طباع المرح التي لي، وطباع اللاتم، التي لي. ماذا عن خنجري؟. أشقُّ إحدى
عشرة حنجره، بفضة واحدة، في عبوري أمام صف من المحاربين. ثم أعيد خنجري إلى غمديهما قبل
أن يحسوا أن حناجرهم انشقت، أيها الهوداهوس الغريب. أعطيت شرف ذبح تيتونا للهوداهوس
ديديس، اليوم». قبّلت ديديس، الجالسة إلى جواره، مقبض خنجره الأيسر.

أمضى الغريب ثمانية أيام يجوب أعماق الكهوف السفلية، تحت التلال الكبرى شمال شرق
هايدراهوداهوس، في رفقة صاحبه القوي، الفضلي اللون، كينوس. كيسه الصغير كان مليئاً بحجارة
الزمرد الصغير ينقحها بسخاء في الأسواق، وفي مجالس اللهو، وحلبات المصارعة. أمّا إذا صاحبتهما
ديديس فإنما تقودهما، بنفسها، إلى المدرج المنتصب على ضفة البحيرة - مدرج غناء ساحرات
سايدين، اللواتي يقدمن، في ضياء الفوانيس الكبيرة، والمشاعل، نشيداً حزيناً للمياه، مُلغزاً،
رطباً من هبوب الضباب، وماجناً أيضاً: «اسمك المنسي، الفاتن، يورقني. زيدك يورقني، أيتها
المياه. الرعد الذي لك رعد الذكر الذي يستبيحني. الرعد الذي لك رعد الأنثى التي تستبيحني».

تسمع ديديس الأناشيد فتعصر مقبضي خنجريها.

لكن ديديس أوصت كينوس أن يصحب الغريب إلى كهف الرّواة، ذلك اليوم الذي أزمعت فيه،
للمرة الأولى، أن تدعو أنستوميس إلى ترفيه مُعز لا تعرفه حاكمة فيفلافيدي في عالمها القريب من
الكهف الأعظم. الرواة يروون - وقد ارتدى كل واحد صداراً من الجلد، أو درعاً من الزرد النحاس -
أقاصيص مُلغزة، وحكايات أسفار ورخاليين: لوعه، وغرام، وهلع، وغدز، وخيانات، وأساطير،
وأقدار يتعثر بعضها ببعض. تسع منصات في الكهف، متباعدة، يصعد إليها الرواة، ولكل منصة
جمهورٌ بحسب ما يستهويه.

«أيتها الهوداهوس أنستوميس، هلاً رافقتني إلى ترفيه يخلو منه خيال الكهوف المحيطة
بتخوم الكهف الأعظم؟»، ذلك ما قالت ديديس لحاكمة فيفلافيدي، قبل الظهر بقليل.

«إلى أين؟»، سألتها أنستوميس، فردت ديديس: «إلى كهف الرواة، في أعماق التلال الكبرى».

تردّت أنستوميس: «سأسأل التابع سينو إن كان قد زار تلك الكهوف من قبل»، قالت، وبحث بعينها عن تابعها المتجول بين الأعمدة. لمست ديديس كتفها: «لن نتحاجي إلى مشورة سينو. سأريك نقوشاً لا يعرفها إلاّ الهواء - أيتها الهوداهوس أنستوميس. سأريك نقوشاً تعيدنين ترتيبها بحسب كل حال من أحوال خيالك».

عصراً اصطحبت ديديس حاكمة فيفلافيدي، وحدها، إلى كهف الرواة، بعد مسيرة فرسخين ونصف الفرسخ، عبر أسواق صغيرة، وحقول تكثر فيها أسراب الإوز، وصفوف أعمدة تسند سقوفاً متقطعة يتفياً تحتها الجنود الجوّالة، وباعة ألبان الجاموس. كان مدخل الكهف منحوتاً على شكل قناع نصفى. روائح خشب الرئد، وشواء اللحم، ممتزجة بالصهيل الخافت، هي التي غمرتهما إذ دخلتا إلى الجوف المضاء بمصابيح كبيرة، وثرابات ملأى بالشموع تتدلى من السقوف، فوق الأثماء المنتشرة بين الأعمدة. «تعالى من هنا، أيتها الهوداهوس أنستوميس. أنا مفتونه بالقصص المألغة. عسى تستهويك، أيضاً، قصص كهذه»، قالت ديديس. لم تنتظر جواب حاكمة فيفلافيدي. مشت أمامها كدليل إلى البهو الثالث، حيث وقف راوية فوق منصة حجرية أحاط بها حشد من الجالسين. الراوية يحكي، ويدور حول نفسه كي يستعرض الوجوه كلّها، والجالسون يحمحمون، أو يسهلون. في هدوء تقدّمت الأنثيان. «فلنجلس هنا»، قالت ديديس مشيرة إلى عمود فُرشت على جنبه زرابيتان. ركعت على ركبتَي قائمتيها الأماميتين تهّم بالجلوس، لكنها استقامت إذ أحسّت أن أنستوميس تتراجع. «مابك»، تمت. «ما الذي أجفلك؟». نظرت إلى وجه أنستوميس المنكمش من الدهش والذهول معاً. حمحمت حمحة ارتباك: «أيتها الهوداهوس أنس...». دارت أنستوميس. هرولت صوب باب الكهف كأنما عضها الهواء بأسنان من نار. لحقت بها ديديس. صارتا في العراء المسكون بصور المغيب غير المكتملة بعد. «بحقّ اللون، أيتها الهوداهوس أنستوميس، ما الذي...». لم تلتفت أنستوميس. حمحمت بصوتٍ مثلوم: «نسيت شيئاً، أيتها الهوداهوس ديديس. الأميرة...»، قالت باحثة عن غدّر ضائع قد ينقذ التلقظ باسم الأميرة. ركضت بقلب طائر.

دارت أنستوميس، تلك الليلة، حول كل عمود من الأعمدة الثمانمائة في كهف فيفلافيدي. لطالما أحسّت أن الأمير ثيوني قد قشّر شخصه واكتسى شخصاً آخر. لم تكن الأشعار من طباع لسانه، لكنّها هو ينثرها مع حركة عينيه وحركة جسده. أنيكساميدا هي التي تعيد المحاورات بينه وبين أعيان الكهف الأعظم إلى سياقها، لأن ثيوني يجعلها ظلالاً متفرّعة في نسيج من التوريات. أكسيانوس، يجلس أبداً، على نحو غير معهود، إلى جوار أخيه. بهامسه بشكل متكرّر. عينا الأمير تتشردان في عبور الخاديات حول الحوان. يسهل سهيل الرغبة بلا حرج. وهو بات ملحاحاً في الطلب إليها أن تحضر مادبّ العشاء. يتشمّمها قبل أن يجلس، متجاهلاً عيني أنيكساميدا. تعرف أنستوميس برّم الأمير الذي بلا حدود. لربما كان سلوكه هذا من دُعابات خياله الجامحة لاستدراج الآخرين إلى لعبة البلبلة. يجب إدارة الاضطراب، بلا صخب، على من يكلمهم. لطالما كرّر كلمته الأثيرة: «الضجر شوق» باختزال يمّو المعنى. لكنه، في مخاطباته المشمولة بسؤاله

الموجّه إلى أعيان الكهف الأعظم، عن أحوال هايدراهوداس، يتوحّى الوضوح الصارم، المتّزن، والمقتصد. أنستوميس لم تشكّ، قط، في أن الذي تراه هو الأمير، بالرغم من السّهو المحير الذي يستغرفه، بين حين وآخر، فيسارع إلى تبديده بتقليد نفسه، التي عَقَلَ عنها قليلاً. كان، بحق، منقسم الخيال بين الضجر، وبين الشوق: ذلك ما أكدته أنستوميس لعقلها. بيد أنها تشققت كقشرة الكستناء على صاج فوق النار، حين لمحت، في دخولها كهف الرواة، مخلوقاً يشبه الأمير على نحو مفرط في الوضوح، قرب مصباح ضخم، هادىء الفتيلة، لا يمؤه الملامح بالظلال. وكان ذلك الشبيهة يفتل خصله من شعره، فوق أذنه، بأصابع يده اليسرى، كعادة الأمير حين يُصغي.

أربعة عشاءات دأبت أنستوميس، في كهف المآدب، أن تروّض يقينها المذعور بإعادة المطابقة بين صورة الأمير في خيالها، وصورة الأمير أمام عينيها. عذبها تشنّتها، الذي أحدثته رؤيتها للمخلوق الشبيه في كهف الرواة. عذبها ألق اللغز. تمرّغت حيرتها في رمل قلبها.

في اليوم الخامس من زيارتها كهف الرواة، ظهرت ديديس بعد غياب. فوجئت أنستوميس بوجود ذات الجديلة الذهبية قرب العمود الذي تحفظ في تجويفه شظايا لوح أورسين. تبادلنا نظرات محوّة المعاني. تبادلنا أقنعة بأيدي أسنلتها الخرساء. دارت الواحدة حول الأخرى. «لا أريد أن أعرف ما الذي أجفلك، ذلك اليوم، أيتها الهوداهوس أنستوميس، لكنني أريد أن أريك شيئاً ما»، قالت ديديس، فتمتمت أنستوميس: «في كهف آخر من كهوف أعماق التلال؟».

«لا»، ردت ديديس: «في كهف مهجور. إنه شيء يخصني. رسوم...».

كان ذكّر الرسوم، من فم ديديس، طعماً أحبّت أنستوميس مذاقه. تواعدتا على اللقاء عَصراً في الكهف المهجور، الذي رسمت ديديس المعابر الثلاثة إليه بخطوط من إصبعها على الهواء: كهف أخذته حاميّة من الجند لإقامتها، ثلاث سنين، قبل رحيلها إلى موقع آخر. وقد استدلت عليه أنستوميس من بقايا المرصد المتهدّم، المشرف من التلّ المعشب على جسر ذي جبال فوق فرع من نهر تومان الأزرق. جاءت وحدها، تاركة كهف فيفلافيدي تحت إشراف سينو النحيل، ذي الشعر المنتصب كعُرف الديك. دخلت الكهف من الشرح الضيق الذي هو بابّه: كوة عميقة في الجدار دحرجت شعاعاً من النور إلى أعماقه. أربعة أعمدة، وحوض حجري لصق أحد الجدران ينحدر إليه، من شق، جدول رقيق من الماء ذو همس بارد.

لم يكن الكهف المهجور كبيراً. دارت أنستوميس بعينيها على أرجائه مدركة أن ديديس قد تأخرت. التمع نصل قرنهما حين عبرت مسقط شعاع النور على أحد الأعمدة. توقفت. هزت جدائلها العشرين، ثم سهلت سهيل الإعجاب: لاحت على جدار من الكهف المهجور، ثلاث صور محفورة بإتقان في حجره الرمادي ذي العروق الزرقاء. واحدة لأورسين مستنسخة، بتمامها، عن شظية اللوح التي وهبتها أنستوميس إلى ديديس. والثانية لأورسين وقد أضيف ذيل طويل إلى جسده، فوق ردفه، كما استبدلت قدماه بحافريّن. والثالثة لأورسين، بنصفه الأعلى فقط، متصلاً بنصف جواد، مثله مثل مخلوقات الهوداهوس.

لكنّ ما سكب في قلب أنستوميس قطرة من ندى المطلق هو القرن، الذي برز مستقيماً في جبهة أورسين. ضحكت وهي تسمع وقع الحوافر قادمة إلى باب الكهف. لم تنظر إلى القادم. رفعت

صوتها الممتلئ بنبيرة المتمدح: «أنتِ صنعتِ هذا يا ديديس؟».

وقفت ديديس إلى جوار أنستوميس. انتبهت حاكمة فيفلافيدي إلى صوت حوافر أخرى تتقدم منها. ارتعدت، وتراجعت حين وقعت عينها على القادم الآخر. تماوج درعُ الودع على صدرها. صهلت ديديس: «أرأيتِ روحاً بأنيابِ خنازير؟ هذا ضيف صديقنا كينوس. غريبٌ...»، لم تكمل كلماتها إذ نطق الغريب: «أنستوميس. لا تمرّد في هايدراهوداهوس»، قال، ثم استدرك: «ماذا تفعلين هنا؟».

تلعثمت أنستوميس: «أيها الهوداهوس الأمير...».

صهلت ديديس. دارت من حول ثيوني مفتوحة الفم، كأنما ترسمه تفصيلاً على بلورة خيالها. «الأمير!! لم نسمع باختفاء الأمير. لم نرَ أحداً يتقصّى أمرَ أميرٍ ضائع»، تمتمت، ثم استدارت إلى أنستوميس: «ها عرفتُ ما دفعك إلى الهرب من كهف الرواة. رأيته، ذلك المساء، أيتها الهوداهوس أنستوميس».

مرّر ثيوني راحته على ظهر أنستوميس - ظهر الجواد: «سأعطيك حظوة العودة بي إلى الكهف الأعظم، هذا المساء»، قال. حدّق بعينين من الرغبة إلى قرننها: «أظنني حيّرت الجميع باختفائي». ضحك: «أيّ ذهولٍ يعتصرهم الآن؟ ماذا يقولون، أيتها الهوداهوس أنستوميس؟».

«لا شيء. لا ذهولَ، أيها الهوداهوس الأمير. أنت لم تختف»، قالت بنبيرة باردة.

وضع الأمير إصبعه على نصل قرننها. تأمّل عينيهما المرتبكتين: «خيالك عابس»، قال، واستدار إلى ديديس: «حدّثتني عن حلم كامل. جئت بي إلى هنا لتريني شيئاً. حدّثتني عن حلمٍ كامل، ليس كذلك؟».

حمحمت ديديس ترتّب صوتها المتبعثر: «انظرُ إلى هذا الجدار»، وأشارت إلى الرسوم الثلاثة، الغائرة الخطوط في الحجر. نقل الأميرُ بصره من شكل الهوداهوس الكامل إلى الشكل الثاني ذي الذيل والحافرين، ثم أطال التحديق إلى الشكل الثالث - شكل المخلوق الواقف على ساقين، عارياً، عليه عباءة قصيرة تصل إلى ردفه، وحول رأسه طوق رقيق كتاج: «من هذا المخلوق؟»، قال بصوتٍ خافت ومحمم. ردت ديديس: «تأمّله أكثر، أيها الهوداهوس الأمير»، فعاد ثيوني يستنطق، بعينيه، خطوط الشكل الغامض. تتمم: «هذا مخلوقٌ خيارُهُ الخدعة».

«خذْ معك»، قالت ديديس. كلمات ذات رائحة كيود البحر كانت كلماتها. التفت ثيوني برأسه إليها بطيئاً. لمعت شفرة حديد في مسقط شعاع الثور من الكوة: «خذْ أورسين»، حمحمت الأنثى ذات الجديلة الذهبية، وتراجعت.

«ماذا فعلت؟»، صرخت أنستوميس مذعورة. شخر ثيوني فنناثر الدم من حنجرته المشقوقة على عباءتها وإحدى كتفيها. أمسك حنجرته بيد، ومد الأخرى إلى خنجره: «دييد بي...». تقطعت الحروف. دار على نفسه. صدم العمود الأول، فالثاني. انكأ عليه برهة يتقصّى خياله الهارب، ثم انهار قريباً من حوافر أنستوميس. ارتعشت قوائمه رعشة اليأس المترقّع عن علوم الأمل. تراخى جسده بعد تشنُّج.

«ماذا فعلت»، صرخت أنستوميس ثانية بصوتٍ من رمل. ردت ديديس: «ما تظنين أنني

بركات: كهوف هايدز/هؤد/هؤس
فعلت؟». مسحت خنجرها بطرف عباؤها، وأعادته إلى غمده: «لم يكنه الولاء المعلن، فأتى
ينتصي الولاء الخفي». لم تكفه سلطة الأمير المعلن، فأتى يتدرب على سلطة المتنكر. وأنا أبقيته
متنكراً».

«أنت تدورين على خيالي بحوافر من موج»، قالت أنستوميس. اقتربت منها ديديس عابرةً
مسقط شعاع النور فالتمع جلدُها الأسود النقي. التمع ذيلها وشعرها الذهبيان. «أمير متنكر هو
أمير ميت»، قالت. «سأتي بمن يخفيه في حفرة، أو نجره إلى محرقة».
«لا»، دمدمت أنستوميس. «لا أريد أن يعرف سوانا بالأمر. إن سئلت عن الضيف الغريب
لقتي خبراً عن عودته من حيث جاء». وضعت يدها على درع الودع فوق صدرها: «أنا سأتولى
إخفاء ثيوني».

فتح ثيوني عينيه فجاءه. زفر. سهلت أنستوميس. سلّت ديديس خنجرها معاً. تناثرت
أنفاسهما الرملية على بركة الدعر. التصقتا. زفر ثيوني ثانية، ثم أطبق أجنانه، في هدوءٍ ثقيل،
على نقوش الحقائق.
هدأت أنستوميس وديديس. هداً صخب الحجر في رسوم أورسين.

الصهيل

تسع حمامات حطت فوق ظهر الأمير، وهو جالس تحت قبة من الحجر الأزرق، في الحديقة الكبرى
- حديقة التيجان المحمولة على أعناق النحام الحجري. فك بيئو، عميد الحرس ذو الشارين الأبيضين،
الرسائل عن سيقان الحمام الرقيقة، وقدمها مفتوحة، واحدة تلو الأخرى، إلى الأمير، الذي استعرض
سطورها الرسوم، ووضعها، من ثم، بين يدي أنيكساميدا.

«هذه رسالة ضلّت طريقها»، قالت الأميرة حين مرّت الرسالة الخامسة من يد ثيوني - آزينون إلى
يدها. «أية حمامة كانت الرسالة؟»، سألت بينو، فطوّق بينو ذو الخوذة حمامة براحتيه، في رفقٍ،
وقربها من أنيكساميدا. «هذه من حمامات كهف فيفلافيدي» قالت، وتأمّلت الرسم على ورقة البردي
- رسم مخلوق من الهوداهوس له رأس تيس بقرنين ملتويين. مالت برأسها إلى الأمير هامسة: «بات
البريد المرسل إلى أنستوميس يصل إليك». فهمس الأمير، بدوره، إليها: «سأحمل بريدها، وحمامتها،
إليها».

«ألم تتعلّم، بعد، أن تكون أميراً؟ لا تلمسني بذيلك»، قالت أنيكساميدا بصوت خافت، فأوقف
آزينون حركة ذيله.

في المساء الصاحب، الذي تساقط قطرة قطرة، كشحم البط المشوي، فوق جمر الأناشيد المحمومة،
وجمر الحناجر الهاذية بالغناء، قدّمت أنيكساميدا الرسالة إلى أنستوميس. مرت قربها، بين حشد
الأعيان وزوجاتهم: «حمامتك ضلّت طريقها. هذه لك من رسامي هايدراهوداهوس الكسولين»، قالت.
«الحمام يشيخ»، ردت أنستوميس. ابتسمت الأميرة. همست: «إبقي قربي في هذا الحفل، أيتها
الهوداهوس أنستوميس».

لم تستطع أنيكساميدا أن توجّل قدوم الخاطبين السبعة، الطالبين حظوة مصاهرة أمير الكهف

الأعظم، أكثر من عشرة أيام. أبناء أعيان أقوياء في إدارة شؤون هايدراهوداهوس أوفدوا الرُّسُلَ مع كلماتٍ يتقربون بها إلى بكر بنات ثيوني. طلبوا تحديد موعد لعرض خطاباتهم بين يدي الأمير والأميرة. وكانت المراوغة في تحديد لقاء بهم سيُعدُّ إهانةً. وهبوا الإذن بالحضور، فحضروا.

سبعة خطباء شباب حضروا مصحوبين بأناشيد التوسُّل إلى اللون أن ينسكب عذباً في جلود نسلهم. وقد تعاقبوا، واحداً واحداً، على إلقاء ما كتبه خيالُ المُدريين على هياج الكلمات، فاعتصروا المعاني الناضجة كعافية السهول، وقدموها إلى تاروس العذراء، ابنة ثيوني، في كؤوسٍ من توريدات قلوبهم. كانت تاروس جالسةً على مصطبة، وسط الواقفين جميعاً، متلألئةً في نعمة زينتها المختارة وفق بهاء جلدِها الأبلق كأمها. تُصغي، وتزُنُّ أشكالَ الخطباء بميزان الرغبة النبيلة: «سأعطيك الغمد الذي يجعل خنجرك عقلاً»، قال الأول. اقترب منها. انحنى، وتراجع.

«أنتِ قادرة، أيتها الهوداهوس الأميرة، أن تسرقني مكاناً يستقرُّ فيه أميرٌ حاضرٌ غائب»، قالت أنستوميس للأميرة من وراء كتفها، بصوتٍ خافت. لم تلتفت أنيكساميدا. هزت رأسها ذا الجدائل الست. مالت بعنقها قليلاً صوب أنستوميس: «الأمكنة لنا، فلماذا نسرُّها؟». «المكانُ مُلكٌ ذاته»، ردت أنستوميس.

تقدَّم الخطيبُ الثاني من تاروس: «سأعطيك ما يعطيه الماء - رغبتُهُ وخياله»، قال، ثم تراجع. «أتعشين بالكلمات، أيتها الهوداهوس أنستوميس؟ هذا المساءُ الصاخبُ مُلكُ الكلمات»، قالت الأميرة، فردت أنستوميس: «العبثُ بالكلمات عبثٌ بأقدار هايدراهوداهوس. ما أراد لساني الممتنُّ لصداقتك سُجَّةً هو أن يتواطأ مع فكرتك أنتِ عن الكلمات». اقترب الخطيبُ الثالث من تاروس العذراء: «سأعطيك سهرَ قلبي على قلبك، وسهرَ يقظتي على يقظتك»، قال، ثم تراجع.

«ما فكرتني عن الكلمات؟ أنتِ تروِّضين علمي»، قالت أنيكساميدا، فردت أنستوميس: «بل أنتِ القادرةُ على ترويض علمي، بإعادة الحقيقة إلى المتاهة». اقترب الخطيبُ الرابع من تاروس: «سأعطيك حنينَ البذرة إلى الثمرة، وسأسرد عليك لُغزَ الثمرة الحاملة»، قال. انحنى، وتراجع. «ما المتاهة، أيتها الهوداهوس أنستوميس؟»، قالت الأميرة وقد التفتت إلى حاكمة فيفلافيدي. فردت أنستوميس: «الأمير».

اقترب الخطيبُ الخامس من تاروس: «سأعطيك كمالاً ما لا يكتمل إلا بك، تُقسأً تُقسأً»، قال. انحنى، وتراجع.

«أنتِ هبوبٌ المجهول عليّ هذا المساء»، قالت أنيكساميدا. مرَّرت إصبعها، في حنو، على قرن أنستوميس: «انظري إلى الأمير. أيشبه متاهة؟». مدَّت أنستوميس عنقها لترى ثيوني - آزينون من وراء رأس الأميرة: «نعم. أميرٌ حاضرٌ غائبٌ يشبه متاهة».

اقترب الخطيبُ السادس من تاروس المُنتصرة الزينة: «سأعطيك الوعد الذي به، وحده، يكون النهارُ حصنَ الليل، والليلُ حصنَ النهار». انحنى، وتراجع.

«يا حاكمة الرسوم...»، قالت أنيكساميدا متعجبةً، فحاصرته أنستوميس بلسان هبوبها على خيال الأميرة: «لا أحدٌ يحكم الرسوم».

بركات: كهوف هايدز/اهود/اهوس
اقترب الخطيب السابع من تاروس الممرغة في جمالها: «سأنشر في حقل ظلك بذور ظلي، وظل أبي، وظل أمي». انحنى، وتراجع.

«أعيدني إليك، أيتها الهوداهوس أنستوميس. لقد ضللت»، همست أنيكساميدا. ردت أنستوميس: «أنت معي». ألصقت جنبها بجنب الأميرة: «أتأتين إلي فيفلافيذي غداً، وحدك، أيتها الهوداهوس الأميرة؟ سنتحقق - أنت وأنا - من علامات الخروج من المتاهة».

«فيم همسكما. أتعلمان حرباً على اللون باسم اللون، أيتها البهيتان؟»، قال الأمير. طغى على صوته نهوض تاروس عن المصطبة، وهي تفرع بحوافرها المطلية بصبغة الذهب على الرخام: «سمعت ما يخلب القلب. أنا دائخه من سروري. سأستعيد مراراً، طوال ليلي، ما قلتموه. عصر غدٍ اختار من يتم لي نصف حلمي، وأتم له نصف حلمه».

لم تنم تاروس تلك الليلة. أغفت في الصباح من وطأة النعاس على وقع حوافر أمها مبتعدة عن مخدعها، وهي تلقي كلمات عسلاً على رغيغ غفوتها: «قليلاً صدى حوافر نسلك ممرات الكهف الأعظم، يا حمامة الحمامات، أيتها العذراء تاروس - ابنتي».

كانت أنيكساميدا في طريقها إلى أنستوميس، مع مزئتييها الأختين سافينوس، وروسينا، البيضاوين، وثلاثة من الأتباع الحرس، الذين أبقتهم في مدخل بهو فيفلافيذي، وأكملت - وحدها - عبور جسدها عبر الأعمدة، إلى القبة الحجرية، وسط الكهف، حيث تدير أنستوميس شؤون عالمها. رأته أنستوميس المجتمععة مع بعض المرؤمين. تركتهم ومشت صوبها. التقتا. «يلزنا مرؤمون أكثر، أيتها الهوداهوس الأميرة. خيال الجدران يتسع، يوماً بعد آخر، في هذا الكهف. تكثر الرسوم، ويكثر الزائرون»، قالت، فردت الأميرة وهي تحاول العثور على سطر تفرؤه في عيني أنستوميس: «سيكون لك ما تحتاجينه. لماذا جئت بي إلى فيفلافيذي؟».

«لأستغل حكمتك»، ردت أنستوميس. هزت أنيكساميدا رأسها: «تجعليني مضطربة»، فهزت أنستوميس رأسها أيضاً: «نعم. لأنني مضطربة». ودارت بعينها صوب حاشية الأميرة: «ظننت أن ستأتين وحدك». تلفتت الأميرة حولها: «لا يسمعنا أحد».

«كنت سأخذك إلى مكان آخر. أيتها الهوداهوس الأميرة»، قالت أنستوميس. ردت الأميرة: «خذي. سيقفون هنا». تنفست خفقات الهواء المحموم: «إلى أين ستأخذيني؟». قربت أنستوميس قرئها من وجه أنيكساميدا: «سأخذك إلى امتحان، الخطأ فيه إنقاذ لهايدراهوداهوس، والصواب تحطيم».

قادت أنستوميس خطوات أنيكساميدا إلى الكهف المهجور. حين جاورتا المرصد المتهدم توقفت حاكمة فيفلافيذي: «انظري إلي، أيتها الهوداهوس الأميرة. قلبي يتبعثر في كل خطوة، ويتجمع في كل خطوة. الصاعقة، التي ستهوي عليك - إن هوت - ستحرق صدري أولاً». لم تنطق أنيكساميدا. تناقلت سيقانها. مشت أنيكساميدا خطوات. توقفت من جديد: «ماذا لو تمردت هايدراهوداهوس؟». «لا أفهمك»، ردت أنيكساميدا. «لا أشم تمرداً في هايدراهوداهوس». أمسكت أنستوميس بيد الأميرة، ورفعتها إلى قرننها. «اجعليني أرتعد إن ارتعدت يدك». تنفست بعمق. «ماذا لو قتل الأمير؟»، قالت. صهلت أنيكساميدا صهيلاً مرقاً. تدرج صوتها كرملة على لسانها: «لا تقطعي، في كل خطوة، قطعة مني. جري قلبي - قلب أميرة الكهف الأعظم، دفعة واحدة، أيتها الهوداهوس

أنستوميس».

دخلنا الكهفَ المهجور: كان العمود الثالث يحجب نصف الجثة. دارت أنستوميس من جهة، ودارت أنيكساميدا من جهة. تواجهتا خلف العمود. ركعت أنستوميس إلى جوار القتيل الذي غَطِّيَ وجهه بعباءته. رفعت العباءة. انهارت أنيكساميدا كأنما بُتِرَتْ حوافرها. نظرًا ثها ظلت خرساء. لسانها ظلَّ أخرس. ضربت براحة يدها اليسرى على صدرها، ولمست بالأخرى شعرَ ثيوني. «تبدو ضجرًا»، همست، ثم صهلتُ صهيلاً موحشاً. «تبدو ضجرًا». رمى الألم بالترد من عظامها إلى عصب روحها. «ربما إن تَمَرَّدتْ هايدراهوداهوس، الآن، تلاشى ضجرُك يا زوجي ثيوني».

«الأميرُ هناك، في الكهفِ الأعظم. لن يتمرّد أحد، أيتها الهوداهوس الأميرة»، قالت أنستوميس. تجمّع لسانُ خيال أنيكساميدا المتبعثر: «من فعل هذا؟». «أيهم، الآن، أن تعرفي من فعل هذا؟. انظري إليه. أسأليه»، قالت أنستوميس. حمحت. «لن يعرف أحد بالأمر».

«كيف اهتديت إليه، هنا؟»، سألتها الأميرة.

«قادني وحيّ اللون»، ردت أنستوميس. كررت كلماتها: «لا يعرف أحد بالأمر». «لن أسألك، أيتها الهوداهوس أنستوميس، عن النقش الذي تحفرينه على حجر علمك بهذا كله. لكن، أتظنين أن نقل جثمان الأمير إلى أخدود تاييس سيتم من غير أن يعلم أحد؟!»، قالت أنيكساميدا مستغربة.

«لا. لن يُنقل جثمانه، أيتها الهوداهوس الأميرة. حُذِي جانب الخطأ. درّبي الخطأ، في هذا الكهف، أن يكون صواباً. الصواب، الذي تظنّينه صواباً، سيحطّم أعمدة الكهف الأعظم»، قالت أنستوميس. حمحت أنيكساميدا. قالت بصوت مهزوم: «كلماتك تضللني. أعيديني إليّ». ردت أنستوميس: «أعطيني، أيتها الهوداهوس الأميرة، عملاً. سأبني جداراً على باب هذا الكهف من خارجه. لن أدع أحداً يتخطّى العتبة. لن يعرف أحد. عندك أميرٌ حيٌّ في الكهف الأعظم». «آزينون. عندي آزينون هناك»، قالت أنيكساميدا. مالت أنستوميس عليها. أمسكت بيديها تُعيّنها على النهوض: «ستصنعين من آزينون الأمير الذي يفصل من ظلك، أنت، عباءته، وعباءات أيامه».

نهضت أنيكساميدا. ألقت على ثيوني نظرات خيالها التسع. تمت: «أنت تستهوين آزينون». شدت أنستوميس على يديها: «سيسرب من يدك هوى حقيقته الجديدة. لن يستهويه إلا ما يستهويك، أيتها الهوداهوس الأميرة».

«هناك من يعرف بأمره، أيتها الهوداهوس أنستوميس. أكسيانوس، كيدرومي، والفلكي ميدراس، الذي جاء بآزينون»، قالت الأميرة.

«لا أحد يعرف بأمره، أيتها الهوداهوس الأميرة»، قالت أنستوميس بصوت الحيلة. تدرجتُ خرزة الحيلة من لسان أنستوميس إلى قلب أنيكساميدا، التي أطلقت أنيناً ممدوداً. ستة وثلاثون عاملاً، من أولئك المدربين عصباً على إشارات البنايين، سدوا باب الكهف، بإشراف أنستوميس. سدّ ثيوني القتيلُ بؤابة حقول اللون المترامية بلا نهاية، على خياله المهشّم. تأمل نفسه في البلورة، التي قدّمها إليه أورسين بيدين حجريتين.

سته وثلاثون محارباً، مقلّعين بأقنعةٍ مرتجلةٍ الصُّنْع من أوراق الدُّرّة، خرجوا من دغل القصب، الذي اخترفه الطريقُ من الكهف الأعظم إلى كهف الطواحين. انقضُّوا، كسهامٍ من ظلٍّ، على موكب الكاهن كيدرومي وأكسيانوس. شقَّت شفراتُ خناجرهم، بلمساتٍ لها بلاغةُ الريش، الحناجر الأربع عشرة، قبل أن يتمكن أحد من رفع بوق الإنذار إلى فمه. أغمي على الهواء. أغمي على القصب. تراجع الستة والثلاثون إلى أعماق الدغل. «حُدِّي هذا إلى أنستوميس، أيتها الهوداهوس ديديس»، قال أحدهم، ووضع شيئاً في يدها.

«ما هذا، أيتها الهوداهوس نيسيانو؟»، ساءلته ذاتُ الجديلة الذهبية وهي ترفع قناع ورق القصب عن وجهها، فردَّ المحارب الكهل: «شاربا كيدرومي، المفتولان بشمع العسل الجبلي».

غبار الشعراء

«أيتها الريحُ الفتيةُ، المشطَّةُ بأمشاط الحقائق الفتية؛ يا همسَ اللّون للون. أيتها الريح التَّقشُ على عقل هايدراهوداهوس، يا بصرَ السهول. أعينيني لأعيتك. وحيدة أنت. بي لن تكوني وحيدة. وسعي السهول. ضيقي السهول. حرّة تكونين إن ناديتك بأسماءِ المفاتيح. مغلولّة تكونين إن ناديتك بأسماءِ الأغلال. ستترعرعين معي. ستكبرين معي. ستهمين معي. سأحلم نصفَ حلمك، وستحلمين نصفَ حلمي، أيتها الريح». هكذا تكلم الكاهن الشاب جوثامو، الأصفر الجلد، الذي اختاره حكماً مجلس الطواحين، ذوو الجلود الداكنة الحُضرة، حلفاً لكيدرومي، المنتصبِ الجثة - بلا شارين - في أخدود تاييس. تلملت الفهوذُ التسعة المحيطة به، في أزمتها، التي يمسك بها ريسمو. أخو تيتونا؛ وكيнос، التابع الجديد للكاهن الجديد.

حملت الريحُ نجوى جوثامو، من أعلى هضبة كهف الطواحين، إلى تخوم حلبة سباق الشعراء، ذلك اليوم المعدود من نهايات الربيع. تنفّست تاروس الهواءَ برئتين عاشقتين، وهي تميل برأسها إلى كتف زوجها، فوق المصطبة الحجرية المديدة، التي توسطتها الأميرةُ وصديقاتها، جالسات، تحيط بهنّ الوصيفات، وهنّ يراهنّ. بسلال صغيرة من الكسئنة المشوية - على من سيربح الشوط الثاني.

ارتفع صهيلٌ قويٌّ من حناجرهنّ حين عبرَ الأمير راكضاً. حمحت ديديس، الواقفة إلى جوار أنستوميس، خلف حلقة الأميرة وصديقاتها: «لن توافق الكواكب حدواته. لن يريح الأمير. كان على فلكي الكهف الأعظم أن يُنبئه، ويثنيه»، قالت. ضربت أنستوميس جنبها بذيلها: «لدينا فلكي جديد يتقصى حيل الكواكب بأسطرلابه، الآن، وهو لا يقول للأمير إلا ما تقوله الأفلاك. ميدراس تُقسّمه لم يكن ليفعل شيئاً لو ظلّ هنا. أمرٌ جديدٌ أن يشترك الأميرُ في سباق الشعراء». أُلقت ببصرها إلى البعيد الأبعد تتقصّى، في شفق اللامرئي، مسيرة ميدراس إلى إمارة بحر لالين - بحر النجوم المرصوفة أربعة سطور في لوح المياه، كي يدوّن علومَ الأفلاك الجامحة، والمروضة، من المراصد العالية، فوق جبال الجُزر.

«انظري إليها»، قالت ديديس محدّقةً إلى الأميرة: «لماذا لا تُسلمينها إلى أورسين، ليأخذها إلى أميرها المتنكر؟».

قرصتها أنستوميس على دعابتها الملأى بأشباح الكيد. ضحكت ديديس: «كلّما مرَّ الأمير أمام المصطبة التهمك، أيتها الهوداهوس أنستوميس. استدرجيه كي يجرّ الكهف الأعظم إلى كهف

فيفلافيزي. حوافره قويه الآن»، قالت، فضربت بها أنستوميس بذيلها: «ما خيالُك اليوم، أيتها الهوداهوس ديديس؟ أنت تقشرين هايدراهوداهوس كعرناس الذرة».

ارتفع سهيل هائل من جنبات الحلبة. ضحكت ديديس: «أنت وأورسين ستقشران سماء هايدراهوداهوس كحبة الكستنة تلك، التي تأكلها الأميرة»، قالت، وضربت بذيلها، في مَرَح، ردف أنستوميس. تأهت أنستوميس: «ذيلُك صلبٌ»، قالت، ثم نظرت إلى ذيل ديديس المزين بمنظومات من خرز أخضر وبنّي تتدلى خيوطاً. لمحت حُصلاً من شعرٍ مفتولٍ تتدلى بدورها بين شعر ذيلها: «من المزيئة التي أوحى إليك بهذا الابتكار الظريف؟».

قربت ديديس رأسها من رأس أنستوميس. همست: «الكاهن كيدرومي أوحى إليّ. إنها حُصلٌ من شاريه».

اندفع سيلٌ من الغبار خلف الشعراء الراكضين في الحلبة يلقون أشعاراً مختنقةً من حناجرهم الهاذية، وتصادمت أصداء الحدوات المدربة على ابتكار رنينها.

٢٠٠٤ / ٢٠٠٣

سكوغوس / السويد